عصر الإنحطاط بين الحقيقة والإدعاء

د/محمد أحمد عبدالله الزهيري*

الانحطاط بين الحقيقة والإدعاء:

الحكم العام على ذلك العصر – الممتد زمنا ومكانا على رقعة واسعة من هذه الأرض البسيطة والزمن الطويل – بأنه عصر ازدهار بدون تروي ودراسة ،فإن ذلك سيوقعنا فيما أخذناه على الآخرين .لإن الدخول في واحد من أهم جوانب البحث وهو إصدار الأحكام العامة المطلقة أمر سهل ميسور : فمن السهولة بمكان أن تدعي أن عصراً ما هو عصر ظلام وانحطاط وتخلف وانحدار وغير ذلك من سلسلة اتهامات لها بداية ،وليس لها نهاية ، لكن من الصعوبة بمكان أن تثبت بعض تلك الاتهامات فضلاً عن إثباتها كاملة .

وهكذا سنجد في النهاية والمحصلة أن العبرة ليست بمجرد الدعوى وإنما العبرة كل العبرة هي بالدليل والإثبات .

والدعاوى إن لم يقيموا عليها بينات أصحابها أدعياء[1]

هذا البحث سيتناول أهم الاتهامات التي وجهت لذلك العصر مع محاولة بحثها ومناقشتها بصورة علمية بعيدة عن الأحكام المسبقة ، آملاً أن تكون هذه المحاولة لبنة في صرح يهدف إلى وضع الأمور في أماكنها الصحيحة . إذ ليس بالضرورة أن يكون هدف البحث الأول إصدار حكم ما بقدر ما هو بحث الموضوع ومحاولة النظر في إنتاج ذلك العصر ، كما أن هذا البحث لا يعني بالضرورة الاعتقاد أن ذلك العصر بجميع ما فيه ازدهار محض فذلك مالا يعتقده أحدٌ لا في هذا العصر، ولا في غيره من العصور ، فكل العصور بدون استثناء حصل فيها انتكاسات وقلاقل وجوانب ضعف ، ويبق الحكم في النهاية للأغلب ، لكن ما يسعى البحث إلى إثباته هنا هو أن كل من تصدى لإصدار حكم عام بالانحطاط على هذا العصر لم يبن ذلك الحكم على أسس علمية ، إنما كان ذلك عبارة عن حكم مسبق جاهز تم نقلة وتداوله بين بعض النقاد والمؤلفين دون إدراك لتبعات ذلك الحكم أو لتقليد ، فضلاً عن ذلك فالبحث في ذلك العصر يجد جوانب ازدهار وإشراق أكثر بكثير من جوانب الانحطاط ، وأن تلك الجوانب تجعل من يحكم لذلك العصر بالازدهار أقرب إلى واقع ذلك العصر ممن يقول غير ذلك نظراً لكثرة جوانب الازدهار

لا يفوت الباحث أن يسجل هنا أنه أخذته الدهشة وأصابته الحيرة الشديدة من جرأة أولئك الذين يتصدرون للتأليف أو للبحث ، وذلك عندما يقومون بإصدار أحكام عامة على عصر يصل

* أستاذ الأدب العربي المساعد – كلية الآداب – جامعة إب

إلى ستة قرون هي نصف عمر أمتنا من أهم مراحل أمتنا وحضارتها وثقافتها .وتزداد الدهشة والحيرة من كثرة تلك التهم التي وجهت إلى ذلك العصر ، وكثرة أولئك الذين وجهوها سواء أكانوا نقاداً أو مؤرخين أو أدباء أو غيرهم ، حتى ليخيل إلى الباحث عندما يخوض غمار بحث من هذا النوع أن الصواب إن لم يكن مع هؤلاء فلا يمكن أن يكون مع غيرهم ، نظراً لشهرتهم وكثرتهم ثم توافقهم وإجماعهم مع إنه من الصعوبة بمكان إجماع من هؤلاء على قضية غير هذه القضية .

على الطرف المقابل نجد أن الذين وقفوا أمام ذلك التيار الكاسح هم قلة يطالبون فقط بالتروي قبل إصدار الحكم ، وينادون بالاستقراء والبحث من قبل إطلاق نتائج من قبل أولئك الذين يريدون لها أن تكون مسلمات لا تقبل النقاش .وبطبيعة الحال لا يمنع كثرة أولئك وشهرتهم وإجماعهم من إخضاع هذه القضية للبحث وللأخذ والرد وذلك حتى لا تترسخ نتائج خاطئة تستقر في أذهان البعض ، وتصبح بعد ذلك مسلمات لا يجوز الخوض فيها ، وثوابت لا ينبغي الخروج عنها بينما هي في الحقيقة أمور تفتقر إلى ما يجعلها مجرد نظرية فضلاً عن أن تكون مسلمات وثوابت .

إن الناظر في ما يوضع في خانة المسلمات وفي سلة البديهيات عبر التاريخ يجد أن كثيراً منها يحتاج إلى إعادة نظر ودارسة وتأمل ، إذ إن المسلمات قليلة وتنحصر في مجالات أبعد ما تكون عن الأدب والنقد . وهذا ما لاحظه المؤرخون والنقاد وغيرهم قديما وحديثاً وقد تواترت الأقوال التي تدعو إلى أن تكون للنقد والتاريخ والأدب منهج مثل منهج الحديث .

الناظر في تاريخناً الفكري والثقافي القديم منه والحديث سيجد أن كثيرا من القضايا التي طرحت على أنها مسلمات ولا خلاف عليها أثبتت الأبحاث أنها قضايا خاطئة باطلة واضحة البطلان وأصبح مجرد ذ كرها يثير عاصفة من الضحك و كما كان مجرد محاولة إخضاعها للبحث العلمي في وقت ما يثير عاصفة من السخرية والاستهزاء . فإذا أضيف إلى ذلك أن ما يتفق عليه المختصون في أي مجال قليل جداً قياساً بالقضايا التي يوجد فيها أكثر من رأي وعليه فان ما سبق يؤكد أنه على القارئ فضلاً عن الباحث والدارس ألا يلغي عقله ، وألا يعطله أمام ما يقرأ وما يبحث أياً كان ، وإنما عليه أن يخضعه للبحث والدراسة شريطة أن يمتلك ما يؤهله للقراءة السليمة والدراسة الصحيحة للأفكار والأحدث والمفاهيم والمواقف .

إن الخروج عن النمطي والسائد رفع كشعار للتجديد والتحديث ، وأياً كانت الدوافع والأهداف وراء تلك الشعارات ، إلا أننا نجد أن ذلك مقبول ومرغوب في كل مجال يتصل بالموقف من الشعر العربي قبل ما سمي بعصر النهضة ، أو بعده بقليل أو أنماط الشعر أو أشكاله آنذاك ، فإذا ما رفع ذلك الشعار مقابل الأنماط التي أصبحت سائدة عندنا بفعل تقليد الغالب للمغلوب ، قوبل ذلك بالتنكر لتلك الشعارات من قبل من روج لها ودعا إليها وقضية أخرى أيضاً لابد أن تكون جلية بين يدي أي نقاش حول قضية الانحطاط في ذلك العصر وقبل الوصول فيها إلى أي نتيجة ، تلك هي أنه لا ينبغي أن يتم أي نقاش حول تلك القضية بمعزل عن فهم المناخ الذي ولدت فيه ، والسياق العام الذي نشأت خلاله ، بمعني أخر أن الأدب

العربي شعراً ونثراً ونقداً بمختلف أشكاله وأنماطه يعيش أزمة شارك في صنعها وإيجادها أسباب عديدة وتعددت بتعدد تلك الأسباب مظاهر تلك الأزمة فنتجت لكل ذلك نتائج كانت هذه القضية واحدة منها ، وقضية أخرى تتعلق تعلقاً وثيقاً بالنتائج التي أسفر عنها اتهام ذلك العصر بالانحطاط والظلام والجمود والتي تمثلت في جوانب عديدة أخطرها :أولها عزوف الباحثين والدارسين عن دراسة ذلك العصر وزهد القراء في الاطلاع على نتاجه ، وهذا يتنافى مع العلمية إذ إن العلمية تستدعي دراسته حتى ولو كان عصر انحطاط وظلام وكان نتاجه رديئاً ، وثانيها نتيجة أخرى تمثلت في ذلك الاحتقار والازدراء السائد لذلك العصر بما فيه لدي قطاع واسع من المثقفين ،إذ أصبح في نظرهم عصر حواشي ومتون وشروح ومنظومات وغير ذلك ،وثالثها افظع وأشنع تمثلت في التطور الذي حصل لذلك الاتهام ليشمل حقباً أخرى تقدمت ذلك العصر ليدخل جميع عصور الأدب العربي والحضارة الإسلامية نتيجة الانهزامية أمام الثقافة الغربية وقوانينها التي حاول البعض إخضاع تراثنا لهذه القوانين والقواعد مع أنها نبتت في أرض غير أرضنا وتحت شمس غير شمسنا وصدرت عن أنفاس غير أنفاسنا و أذواق غير أذواقنا ،ولا أحد يقول " إن الشاعر الموهوب يستطيع أن يبدع أي شيء في غير الإطار اللغوي لعصره . .إن لآدابنا العربية شخصيتها المستقلة ،وإن النقد الذي يصلح لشعرنا يختلف بالضرورة عن النقد الأروبي ، ولا بد لنا أن نستقري نحن القواعد من شعرنا ومن أدبنا. . .وكيف يتاح لنا أن نطبق أسس ذلك النقد الأجنبي على شعرنا الذي يتدفق من قلوب غير تلك القلوب وعصور غير تلك العصور "٢ ،لأن المناهج النقدية الغربية هي نتاج قراءة لأدبهم وشعرهم ،وإخضاع نتاجنا لها أدى وبصورة فجة إلي احتقار تراثنا في جميع عصوره .وهنا يجد الباحث نفسه مضطراً لذكر نموذجاً واحداً فقط على الرغم من توفر العشرات منها ، لواحد من كبار من يوصف بالتجديد في مجال الشعر العربي مما يتعلق بنظرة صاحبه إلى التراث بعامة :يقول أدنيس : "إن الحداثة ظاهرة تتمثل في تجاوز القديم وتصهره في قديم أشمل يوناني مسيحي كوني"٣ .ونتيجة رابعة لذلك تمثلت في التقليد الأعمى وغير الوعي الذي أصاب أدباءنا ونقادنا ذلك التقليد أدخلنا في تيه له بداية ولا تظهر له نهاية ،ذلك التقليد الأعمى للآخر ولكل ما عند الآخر خيره وشره حلوه ومره ما نحب وما نكره وما يحمد وما يعاب حتى نلحق بأولئك على حد قول المقلدين ٤ ،ذلك التقليد الذي يجعلنا نجلد أنفسنا ونسلخ جلودنا ونتبرأ من تراثنا بل ونتهمه بالظلمة والجمود ونصفه بأنه عفن الدروب والتواريخ والأشياء والكلمات ، ذلك التقليد أيضا الذي وضع نقادنا وأدباءنا في تناقض صارخ، فمرة يقولون عن تراثنا بأنه عفن التاريخ والدروب الخ ، ومرة أخرى نفاخر بأن أدبنا قد اكتشف القصة والرواية ومعايير النقد الأسلوبي ، ذلك التقليد الذي جعلنا (شوكة في مهب الريح) نتقلب ظهرا لبطن يمنة ويسرة وجعلت أدبنا مجرد أصداء لما عند الآخر فمرة كلاسيكيون و،ثانية رومانسيون وثالثة واقعيون حتى إذا ظهرت الحداثة ثم ماتت قلنا إننا حداثيون وهكذا يفعل التقليد اللاوعي بأصحابه ولم توصف هذه العصور بعصور الانحطاط والظلام إلا تقليداً لهم ،لأنهم وصفوا أو اتصفت عصورهم بهذه الأوصاف ، وقد سئل أحد المستشرقين الفرنسيين اسمه (شارل بيلا) في بيروت أتقرأ الأدب العربي القديم آم الحديث؟ قال : القديم قيل له:

لماذا؟ قال: لان الأدب العربي الحديث أدب أوربي كتب بلغة عربية٥ .وأخيرا ذلك التقليد الناتج عن عقدة الشعور بالنقص تجاه الآخر والناتج عن ولع المغلوب بتقليد الغالب.

في ظل ما سبق وفي إطاره ولدت ونمت وترعرعت تلك التهمة التي لم تعد مجرد نظرية تقبل النقاش ،إنما أصبحت حقيقة مسلمة لا نقاش فيها .وهي في حقيقة الآمر لو طرحت للنقاش والبحث والتحري لوجدت في النهاية عبارة عن مجرد نظرية تحتمل الخطأ كما تحتمل الصواب ، وقد تنطبق على منطقة دون أخرى ،أو فترة زمنية محدودة دون أخرى ،بل إنها في الواقع لا تصل حتى إلي ذلك .

أن الكثيرين ممن تعرضوا لهذه القضية كالوا التهم دون إثبات أو أدلة علمية أو منطقية ، فتجد الذين تحدثوا عن هذا الموضوع يكتفون بوصف ذلك العصر بالظلامي ،وبانه عصر انحدار وانحطاط وتخلف ، ثم لا تكاد تجد نقلاً واحداً موثقاً إلى ناقد أو مفكر من مفكري ذلك العصر يثبت ذلك . كما أنك لا تجد ما يمكن أن يرتقي إلي أدلة أو حقائق علمية ، وخلاصة ما ذكره بعضهم هو عبارة عن فرضيات أو أحكام مسبقة ونتائج لا مقدمات لها .

إن قطاعاً كبيراً منهم حاكموا إنتاج ذلك العصر من شعر ونثر إلي المعايير والأسس النقدية السائدة في عصورنا ، بل إلي الأسس والمعايير النقدية المستوحاة من أدب الآخر ، وبخاصة الآخر الأوروبي الذي أصبح مع مطلع القرن الماضي قبلة النقاد والأدباء ٦، التي لا بد من استيحاء معاييرها وأساليبها في أدب يراد له الإجادة والروعة .

إن محاكمة ثقافة أو أدب أو نتاج عصر ما لابد أن يكون لمعايير أو مقياس ذلك العصر هذا إن جاز أدبياً محاكمة أدب ما ، وإن كان هناك قيمة أدبية أو فنية من تلك المحاكمة .بل لا بد من مراعة الذائقة الجماعية لهذه البيئة ،ذلك أن المعايير الأدبية والمقاييس النقدية في كل آداب الأرض لا تنشأ إلا بعد ظهور الآداب وبالتالي فهي تختلف باختلاف الإنتاج الأدبي هنا وهناك ، كما أنها تختلف باختلاف أمور أخرى ثقافية واجتماعية وفكرية وعقدية وبيئية ، وبالتالي فإن محاكمة أدب ما في فترة ما لمعايير أدب أخر ، أو لمعايير أدب ساد في فترة أخرى مقدمة خاطئة لن تنتج عنها إلا نتيجة خاطئة لأن الأدب ابن بيئته ونتاج ثقافته وغرس مجتمعه وانعكاس خلاق للواقع.وأمر مهم لابد من طرحه هنا : إنه سؤال أولئك القائلين بانحطاط ذلك العصر وهذا التساؤل هو : هل كان الانحطاط في مجال أو مجالات دون غيرها ؟ أم كان انحطاطاً عاماً، شمل كل جوانب الحياة ؟ وهل كان في إقليم واحد أم شمل كل الأقاليم ؟ إن الإجابة أو محاولة الإجابة على هذا التساؤل لن تكون بالأمر السهل عند من لا يلقي الكلام مجازفة ، بل الإجابة أو محاولة الإجابة عليه من شأنها أن تدفع إلى شئ من التروي والتريث قبل الإجابة . ذلك لأنه لو قال : إن الانحطاط كان عاماً في جميع الجوانب العسكرية والسياسة والعلمية والثقافية والأدبية وغيرها لسهل حينئذ أن يبدأ معه باستعراض لتلك الجوانب المختلفة ، ثم بعد ذلك يترك الحكم له (أكان ذلك انحطاطاً أم ازدهاراً؟!) أما إذا كانت إجابته بأن الانحطاط كان في جانب أو جوانب دون أخرى ، لكان ما يقال رداً عليه أسهل بكثير ، حيث يمكن أن يذكر له واقع تلك الجوانب كما دلت عليه المصادر الموثوقة والمتفق عليها ، ثم كيف يمكن أن ينحط جانب واحد

أو جوانب في ظل ازدهار بقية جوانب الحياة إذ إنه من المعلوم أن الحياة كل لا يتجزأ ، وكل جانب يؤثر بالضرورة على بقية الجوانب ، ثم كيف جاز أن يطلق حكم عام بناء على شئ جزئي ؟!وحتى لا يكون الكلام عاما ينبغي الإشارة إلى أهم جوانب الازدهار في ذلك العصر وبعدها تترك الإجابة على السؤال المطروح لمن تأمل وتدبر وابتعد عن الأحكام المطلقة .

هناك سؤال مهم وجوهري في المجال نفسه هو : هل استقرأ القائلون بالانحطاط ذلك العصر كله الذي يمتد ليشمل ستة قرون أو نحوها من أوله إلى أخره ليخرجوا بذلك الحكم ؟! وفي المقابل هل استقرأوا ذلك الامتداد الجغرافي الواسع والممتد من الأندلس والمغرب غرباً إلى بلاد الأفغان والهند شرقاً و ومن أعماق أفريقيا إلى قلب أوروبا عند أسوار فيينا شمالاً و ذلك الامتداد الذي شملته الثقافة العربية والعلوم العربية ، هل قاموا باستقراء ذلك كله ليخرجوا بتلك النتيجة ؟! لم يأت أحد يدعى أنه استقرأ أو بحث ، وبالتالي سيظل هذا السؤال رافعاً هامته حتى يجد إجابة دقيقة علية .وقد كانت أهم المآخذ على هذا العصر من الناحية ألأدبية والثقافية الأمور الآتية :

١) المحسنات البديعية :

من القضايا التي أثير حولها الغبار من قبل دعاة الانحطاط المحسنات البديعية في نتاج ذلك العصر شعره ونثره ، ومما يمكن أن يقال حول هذه النقطة أمور أهمها :

-الأول : هل كان نتاج ذلك العصر كله مسجوعاً مليئاً بالمحسنات البديعية أم أنه كان هناك نتاج مرسل لا يلتزم المحسنات ؟فالمتأمل المنصف يجد أن المحسنات البديعية كان لها حضور في جوانب معينة كالرسائل الديوانية والاخوانية وغيرها ، وفي مقدمات المؤلفات ،هذا بالنسبة للإنتاج النثري ، كذلك الحال بالنسبة للمديح في الإنتاج الشعري ، أما في بقية الجوانب فلم يكونوا يتقيدون بالمحسنات ،ومن نظر في النثر العلمي في مختلف أنواع العلوم يجد ذلك واضحاً جلياً ، بل كان للأدباء والكتاب موقف من إقحام المحسنات في كل فن عبر عنه الإمام الشوكاني في مقدمات البدر الطالع (٧)

-الثاني : كان للمحسنات البديعية حضور في الإنتاج الأدبي عند العرب حتى قبل الإسلام ،وعرفت تسميات لبعض أنواعه ،ولم يكن ذلك معيباً إلا ما كان منه متكلفاً ،كما انه من المعلوم أن بعض أصنافه جاءت في القرآن الكريم ،وفي كلام النبي -صلى عليه وآله وسلم- من مثل اللهم "أعط منفقاً خلفاً ،وممسكاً تلفا"[٨]،كما أنه قد صح عنه قوله-صل الله عليه وآله وسلم- لذلك الرجل الذي قال في شأن مولود مات : "كيف أغرم من لا شرب ولا أكل ،ولا نطق ولا استهل ،أفمثل هذا يطل ؟قال له :أسجع كسجع الكهان ؟"[٩] فدل ذلك على أن المذموم ما كان فيه تقعر وتكلف وقصد يضيق به المعنى أو يضيع معه ، ثم إن أدباء وكتاب عصر ما سمي بعصر النهضة التزموا المحسنات في إنتاجهم مهما كان ذلك الإنتاج مؤلفات أو مقالات أو غير ذلك . فلماذا لم يعب عليهم مطلقاً كما عيب على من قبلهم ؟ ولماذا اتخذ نتاجهم مؤشراً على بداية النهضة ؟ ثم لماذا لم يعامل إنتاجهم بالطريقة التي يعامل بها إنتاج ذلك العصر .

-الثالث :هل المحسنات البديعية مذمومة لذاتها ،أي لمجرد وجودها في الكلام أم لسوء استعمالها وعدم القدرة على توظيفها ،ما يفهم من كلام المهتمين قديما وحديثا أن السبب الذي جعلهم يقفون موقفاً معينا منها ليس لذاتها وإنما لأن للمستعملين لها والملتزمين بها أسلوباً في الكتابة، وقعوا في جملة أمور بسببها اتخذ منها برمتها ذلك الموقف ومن تلك الأمور :

١ – التركيز على الشكل الذي افقدهم المضمون الجيد ،بل قد يخرج معنى الكلام عن نطاق سيطرتهم فيتكلمون بما لا يريدون

٢ – القصد إلي الغريب لتحقيق تورية أو مقابلة أو سجعة أو غير ذلك ، وفي المقابل قد يلجئون إلي الكلام العامي أو الفصيح المبتذل لتحقيق الغايات نفسها ، إن الكلام قد يطول ويعرض ،ثم إذا جئت لمعناه وجدت معنى يسيراً يمكن أن يؤدى بقليل من الكلمات ،ومع كل ما سبق فهل تعاب المحسنات بصورة مطلقة لما قد يطرأ عليها من مثل ما سبق ؟الصواب أن المحسنات ستبقي أسلوباً رائعاً في أداء المعاني قادراً على التأثير في أنفس وأذهان المتلقين سواء استخدمت في الشعر أو في النثر ،ووجود تلك المآخذ معيب في المنشيء لا في ذات المحسنات،بدلالة وجود نماذج رائعة تحمل معاني مشرقة بأسلوب بديعي مؤثر فالنقد للمحسنات ينبغي أن يكون مثله مثل نقد سائر العناصر الشعرية من ألفاظ وصور وإيقاع ،أي حول قدرة الشاعر على توظيف هذا العنصر أو ذاك في خدمة التجربة الفنية، لئن الكمال لله والعصمة لرسله والتمام لكتابه ، وهنا يبرز سؤال مهم لماذا التركيز على بعض الأمثلة النثرية أو الشعرية التي هي بالفعل صورة مقززة لحالة لا ينكر وجودها في ذلك العصر ؟وهو مثل أي عصر يوجد فيه نماذج مشرقة وأخرى ليست كذلك ،ولو فتشنا في دواوين الجهابذة في مختلف العصور لوجدنا النماذج المتألقة قليلة ،ولوجدنا إلى جوارها حشواً كثيراً ونماذج رديئة .

٢) الأغراض التقليدية :

الأغراض التقليدية قضية أخرى أثير حولها الغبار ألا وهي أن شعراء ذلك العصر نظموا شعرهم في أغراض تقليدية هي :المدح والهجاء والرثاء والغزل والوصف والفخر ،وهم بالتالي قيدوا الشعر ولم ينطلقوا به في آفاق أخرى **جديدة ورحبة** .وعند النظر المتأني في هذه النقطة تتضح العديد من النقاط أهمها.

أولاً :هل استطاع الشاعر الحديث **الخروج عن الغرض** (أي غرض) في قول الشعر ؟الجواب :لا ، اللهم إلا إذا كان (ينظم) **هكذا : أي يقول أو يكتب** كلاماً بدون معنى . والنظرة الفاحصة لإنتاج الشعراء المحدثين من **الدراسات التي أجريت** حوله وجدت أن الغرض في قول الشعر موجوداً في دواوينهم ،وإن تم استبدال **كلمة**(غرض) بكلمة(اتجاه) أو(بعد) أو(أبعاد) أو(تيار) أو(مدرسة) وهكذا وقد جمع ديوان حول الرثاء في شعر العقاد وهو من أشد المهاجمين للموضوعات الشعرية أو ما يسميه بشعر المناسبات .وهناك لطيفة جديرة بالتنبه والنظر ، وهي أن شعراء هذه المرحلة قد التفتوا إلى النفس والمجتمع أكثر من العصور السابقة

التي تسمى عصور الازدهار ،لأن الأدب في هذه العصور ارتبط بالسلطات والحاكم هذا من ناحية المضمون .أما من ناحية الشكل فقد شهد هذا العصر محاولات جادة للتجديد في الإيقاع والصور والألفاظ ،كتنويع القافية وإرسالها واستعمال الرمز واللغة القريبة ،فهي من تجديدات هذا العصر وليس من تجديدات الرومانسية والرمزية والواقعية .

ثانياً :ذلك الإنتاج الشعري يمثل بيئته ، وتلك الأغراض هي القسمات الرئيسة التي تمثل الأدب الشعري آنذاك وتناسب الذائقة الشعرية لها ، وكانت المعاني التي يتحدث هؤلاء عنها ، وأنها مكرورة معادة كانت هي التي تحرك الشاعر والمتلقي في آن واحد ، وهنا يتأكد ما سبق تقريره أن هؤلاء حاكموا الإنتاج الأدبي آنذاك لمعايير أدب أخر في حقيقة تاريخية وجغرافية وثقافية مختلفة وأين هؤلاء مما ينشر اليوم على صفحات الصحف ، وفي الملحقات الثقافية ، وفي المجلات المتخصصة ، ويلقى في المنتديات الرسمة والشعبية وما هي تلك المعاني المشرقة التي تحملها آلاف الأطنان من المطبوعات ؟!

٣) الركود العلمي :

تحدث هؤلاء عن الركود العلمي الذي كان يسود ذلك العصر والذي يجعلون منه سمة بارزة لذلك العصر بينما السمة البارزة أن هذا العصر كان في هذا المجال بالذات أزهى عصور الأمة وهذا الرأي بشهادة فطاحلة ذلك العصر والمنصفين ممن جاء بعدهم وفيه ظهرت بعض الحركات الاجتهادية التي حافظت على الفكر والثقافة ودفعت بها إلى الأمام ، مع أنه يمكن القول : إن كل عصر من العصور لا يخلو من وجود فترات ازدهار وفترات أخرى لا تكون كذلك ،لاسيما أن هذا العصر يمتد على مدة زمنية طويلة تبلغ ستمائة عام وابن خلدون قد جعل عمر الدول بمائة وعشرين سنة، فمن الحيف والظلم الاستناد على فترة جزئية أو شواهد محدودة في إصدار حكم عام ،فالتعميم ظلم .

افتتح هذا العصر بحركة تجديدية قادها سلطان العلماء وبائع الأمراء الشيخ عز الدين بن عبد السلام (ت٦٦٠) كان لها الأثر المباشر في إعداد الجيش المسلم الذي ألحق أول هزيمة بالتتار عام (٦٥٦) في معركة عين جالوت ، ومع نهاية هذا القرن وخلال الثلث الأول من القرن الثامن كان العالم العربي والإسلامي على موعد مع أبرز رجال الفكر والتجديد والثقافة في ذلك العصر كله إنه شيخ الإسلام ابن تيميه (ت٧٣٨) الذي قاد حركة علمية فكرية تجديدية كان لها أصداء واسعة في مختلف أرجاء العالم العربي والإسلامي إلى اليوم، وكان له مشاركة فعلية في تغيير الأوضاع الفكرية والاجتماعية والسياسية وغيرها ، كما كان له مشاركة في ميادين القتال وإعداد الجيوش كما حصل في معركة شقحب في العام (٧٠٢) ومن ثمار تلك الحركة التجديدية بروز كبار أعلام الفكر الإسلامي والعربي كابن القيم الجوزية والذهبي وابن كثير وابن عبد الهادي وغيرهم .وخلال النصف الثاني من هذا القرن كانت الحركة العلمية على أشدها وفي مختلف مجالات العلوم والفنون مما مكن لأحد كبار رجالات الفكر الإسلامي والعربي الذي تتلمذ على أيدي كبار أئمة الفنون المختلفة : ابن حجر العسقلاني (ت٨٥٢) من الظهور والذي تتلمذ على يديه بالمقابل كبار عمالقة الفكر آنذاك ، وحمل الراية بعده أبرز تلاميذه الإمام السخاوي

(ت٩٠٢)والذي شاركه في حملها إمام آخر جرت بينهما ردود ومصادمات علمية عميقة ،ذلكم هو الامام السيوطي (ت٩١١) وتستمر الحركات العلمية التجديدية في سلسلة طويلة من المفكرين والعلماء حتى يأتي كما شهدت نهاية هذا العصر ميلاد الحركة التجديدية التي أسسها محمد بن عبد الوهاب النجدي (ت١٢٠٦)،كل ذلك بطبيعة الحال أدى إلي حركة تأليف واسعة النطاق في مختلف ميادين المعرفة كما مرت بعض الإشارات كما سيأتي ،فكيف يمكن بعد ذلك اتهام ذلك العصر بأنه عصر ركود علمي .

٤) الحواشي والمتون والمختصرات :

تأتي بعد ذلك عند البعض ذريعة أخرى تقول: صحيح كانت التآليف كثيرة ولكنها عبارة عن حواشي ومتون واختصارات ومنظومات في علوم نمطية قديمة وكان لا بد هنا من وضع بعض الإشارات حول هذه القضية:

أولاً :هل كان كل إنتاج ذلك العصر شروحاً وحواشيا ومتوناً ومنظومات ؟

إن الإجابة على مثل هذا السؤال بنعم تنم عن تعجل وعدم معرفة واطلاع على واقع ذلك العصر من المراجع والمصادر التي وثقت مختلف الفعاليات العلمية والأدبية ،والتي هي من الإنتاج العلمي والأدبي لذلك العصر والتي ذكرت آلاف المؤلفات المستقلة في مختلف العلوم والفنون .

ثانياً :مسألة الشروح والمختصرات من الناحية العلمية مقبولة ولها أهداف ومبررات منطقية ومعمول بها في العصور السابقة لذلك العصر ، كما أنها موجودة في العصور اللاحقة له .ففي ذلك دلالة على أهمية الكتاب المشروح أو المختصر لولا جوانب نقص يستدركها الشارح أو جوانب حشو وإطالة يحذفها المختصر ،وهذا يتوافق مع قوانين الحياة وتطورها لا سيما في الظواهر فلا يمكن لظاهرة أن تنشأ مكتملة ،دون أن تكون قد مرت بمراحل تجريب متعثرة ،أنتجت نماذج رديئة ،ولا يمكن أن تظهر ناضجة دون أن يكون هناك مثال سابق يبني عليه آخر(ما نرانا نقول إلاّ معاراً) ،والعبرة هي :ماذا أضاف المتأخر للمتقدم ، لأن التراث نهرٌ فياض يغترف منه الجميع ، ومن الحماقة سد مجرى هذا النهر ، إذ لا يمكن لأيّ كان أن يقطع صلته بتأريخه وتراثه وحضارته ،فيبدأ من الصفر ،أو يتنكب الطريق الصحيح للتعامل مع الثقافة ،فيتحول إلى عالة متسول يستجدي ثقافة وتراث وحضارة الأمم الأخرى ،مع ما يمثله ذلك من خطر على **هوية المجتمع وثقافته** وشخصيته ،كما أراد ذلك دعاة الحداثة في العالم العربي والإسلامي ، **وهو طريق رفضته** أمم وشعوبٌ أقلّ منا حضارة وتأريخ وثروات ،فاستطاعت النهوض والتطور **كما فعلت اليابان** والصين وكوريا ،هذه الدول التي أصرت في بناء حاضرها ومستقبلها **على الجذور الخاصة** والمقومات المحلية المميزة، فأصرت على اليبننة والصيننة والكورنة في كل شيء ،**وخير مثال** على ذلك اللغة التي أصرت هذه الدول على أن تكون لغتها ليست لغة التخاطب فحسب ، إنما على أن تكون لغة العلم .بجميع أنواعه ومراحله ،بينما أقصينا نحن لغتنا العربية عن أن تكون لغة العلم مع سبق الإصرار والترصد ،مما يجعلنا متسولين على موائد الترجمة مثلنا مثل الأعمى الذي رد الله بصره لحظة فنظر

إلى عرف الديك ، فكان كلما ذكر له شيء قال: أين من عرف الديك ! ولا يمكن أن نصل إلى مرحلة الهضم بله التمثل التي وصلت إليها اليابان والصين وكوريا .كما أن في ذلك دلالة على تقدير الجهود المبذولة من قبل الشراح والمختصرين ،ودلالة أخرى هي الأمانة العلمية التي تتمثل في الحفاظ على حقوق الملكية الفكرية التي أهدرت في هذا العصر حيث يقوم كثيرون بالجمع من هنا ومن هنا ،ثم لا يتردد أحدهم فيقول :إن المؤلف أنا .

ثالثاً :فيما يتعلق بالمنظومات والمتون العلمية والاهتمام بها آنذاك فقد سبقت الإشارة في الفصل الماضي إلي الفلسفة التي انطلق منها ناظمو المتون ،ورأينا كيف اهتم العلماء آنذاك بالحفاظ على أصول العلوم المختلفة في صورة منظومات حين انطلقوا من منطلق علمي بحت قائم على أن الحفظ هو أساس الفهم ، ومن لا يحفظ لا يفهم وأن الذي يحافظ على إتقان أصول العلوم هو الحفظ ،وأن ما يعسر فهمه بالنسبة لشخص ما سيكون فهمه عليه يسيراً إذا ما اتقن حفظه ولو بعد مدة من الزمن ،بينما من اعتمد على الفهم المجرد ولم يحط ذلك بإطار محفوظ ،فإنه سرعان ما سيفقد هذا المفهوم ، من هنا كان اهتمام العلماء بالمنظومات، والمتون العلمية المنثورة ، وقد صارت المنظومات جزء من سلم تعليمي يناسب النمو العقلي والجسمي عند الإنسان كما أثبت علم النفس الحديث ،بأن نهاية مرحلة الطفولة المبكرة وبداية الطفولة المتأخرة هي مرحلة حفظ وتلقين،وهي المرحلة التي كان المعلمون العرب المسلمون يحفظون الطلاب فيها المتون ،فإذا جاءت مرحلة الفهم والتحليل دْرس الشروح ،وقد ثبت نجاح هذه الطريقة في إخراج علماء في فترة قياسية قل أن يجود الدهر بمثلهم ،وكتبهم تدرس اليوم في الجامعات .

٥) عدم تشجيع الحكام للعلماء :

الدعم الرسمي له دورٌ كبير في الدفع قدما بالحركة العلمية والأدبية إلي الأمام ،ومما هو مطروح عن ذلك العصر إن واحداً من أهم عوامل الانحطاط هو عدم التشجيع من الحكام والسلاطين والولاة للعلماء والمفكرين والأدباء .وقبل البدء بتسليط الضوء على هذه النقطة ينبغي التأكيد على أنه يوجد في كل عصر من العصور حكام مشجعون للعلم والفكر والثقافة ،وآخرون ليسوا كذلك ،وإنما الشأن هو بالغالب وهؤلاء عندما يطرحون أو يتحدثون أو يؤلفون لا يذكرون من هذا التفصيل شيئاً ،ولهذا نذكر مثالاً واحدا ينسف ما بنوا ،كيف وهناك مئات الأمثلة في مختلف عهود ذلك العصر ، وفي مختلف الأمصار والأقطار .وهذا المثل عن الدولة الرسولية الذي سنذكره لاحقاً.

مظاهر الازدهار:

دافع كثير من الأعلام عن هذا العصر وأثبتوا أنه عصر ازدهار و من الإنصاف أن يكون لأعلام ذلك العصر قول مسموع عن عصرهم فهم أدرى الناس به فقد عايشوا ما فيه وأهل مكة أدرى بشعابها، وبالتالي فهم أدري الناس ومن باب أولى هم أدرى ممن جاء بعدهم .فكثير من أعلام ذلك العصر قد سطر كتباً وألف مؤلفات خاصة بالتراجم لأعيان تلك العصور سجلوا فيها كل ما يتصل بالحياة من مظاهرها المختلفة ومجالاتها المتعددة (سياسية واقتصادية واجتماعية وعلمية

وأدبية وغيرها)وذلك من خلال حديثهم عن المشهورين الذين هم بين سياسي وعسكري وعالم وأديب ولغوي وغير ذلك ، فإذا أضفنا إلى ذلك اعتنائهم بتسجيل الظواهر و ووصف الحوادث والوقائع وصفاً دقيقاً يقوم مقام الرؤية المباشرة أدركنا أن ما كتبوه وسطروه هو عبارة عن صورة مسجلة حية لذلك العصر ، وكنتيجة حتمية لذلك ولأنهم أهل علم وورع وأكثرهم علماء وفقهاء مما يجعل شهادتهم أدق وأصدق من شهادة أناس دونهم بكثير في جوانب متعددة .لا سيما إذا كانوا غير مسلمين .لو جئنا لاستقصاء كل كلام أولئك الأعلام ، لطال بنا المقام ، لكن سنقتصر على كلام الشوكاني وهو من هو: الحافظ الأصولي الفقيه المحدث اللغوي الأديب الشاعر في مقدمة كلامه لكتابه (البدر الطالع) وما الذي دفعه لتأليفه، هذا الكلام الذي يعد نصاً في محل النزاع ، وشهادة مهمة يدلي بها هذا الأمام العظيم مدافعاً عن ذلك العصر الذي ظلم كثيراً ، فإلى كلامه . يقول رحمه الله :"وبعد : فإنه لما شاع على ألسن جماعة من الرعاع اختصاص سلف هذه الأمة بإحراز فضيلة السبق في العلوم دون خلفها ، حتى اشتهر عن جماعة من أهل المذاهب الأربعة تعذر وجود مجتهد بعد المائة السادسة ،كما نقل عن البعض ، أو بعد المائة السابعة كما زعمه آخرون .وكانت هذه المقالة بمكان من الجهالة لا يخفي على من له أدني حظ من علم ، وأنزر نصيب من عرفان ، وأحقر حصة من فهم ، لأنها قصر للتفضل الإلهى والفيض الرباني على بعض العباد دون البعض ، وعلى أهل عصر دون عصر ، دون برهان ولا قرآن ، . ثم يقول –رحمه الله –بعد ذلك : حداني ذلك إلي وضع كتاب يشتمل على تراجم أكابر العلماء من أهل القرن الثامن ، ومن بعدهم ،ممن بلغني خبره إلى عصرنا هذا ، ليعلم صاحب تلك المقالة أن الله ، وله المنة ، قد تفضل على الخلف ، كما تفضل على السلف ، بل ربما كان في أهل العصور المتأخرة من العلماء المحيطين بالمعارف العلمية ، على اختلاف أنواعها ، من يقل نظيره من أهل العصور المتقدمة ، كما سيقف على ذلك من أمعن النظر في هذا الكتاب ، وحل عن عنقه عرى التقليد . وقد ضممت إلي العلماء من بلغني خبره من العباد ، والخلفاء ،والملوك، والرؤساء ،والأدباء، ولم أذكر منهم إلا من له جلالة قدر ، ونبالة ذكر ، وفخامة شأن دون من لم يكن كذلك" ١٠ .هذه شهادة من أهلها تدحض مزاعمهم ، فإذا كان الشوكانى ينعي ويعيب على المتعصبين للقديم دون الحديث ،فماذا لو وصل إليه من يرمون العقلية العربية بالجمود والتخلف وينسبون لها كل نقصيه ،ويرهنون أنفسهم وأمتهم وحضارتها وثقافتها لصالح أمة وحضارة وثقافة أمة أخرى وكانت ولا تزال وستظل تعادي أمتنا وحضارتنا وثقافتنا ويجعلونها معيار الرقي والتقدم والإبداع . ويجزم الدكتور شوقي ضيف بأنه في هذا العصر كان يجري "الشعر على كل لسان" ١١ ،وقال"وكان سيل الشعر لا يمكن ردُه ولا صده في أي إقليم عربي ،فهو دائماً زاد للعرب وعدَّة وعتاد" ١٢ ، وقد سبقت الإشارة إلى شهادة الدكتور (أحمد فوزي الهيب) صاحب كتاب (الحركة الشعرية في حلب الشهباء) .

مظاهر الازدهار في هذا العصر شملت كل جوانب الحياة ، الثقافية والسياسية والعسكري ،والاقتصادية ، والفكرية،والاجتماعية .ولكن ما يعنينا أكثر هو الجانب الثقافي والفكري ، لأن بقية الجوانب تابعة له سلباً أو إيجاباً ، ولأنه الجانب المعني بهذه القرية ، وقد خلد لنا التاريخ في

حيز مكاني مترامي الأطراف هو العالم الإسلامي الذي سيطرت عليهاالثقافة العربية والإسلامية ، وفي حيز زماني امتد عبر ستة قرون من الزمن الآثار الكافية التي تدل على مدى الازدهار والتطور الذي كانت تعيشه الأمة العربية الإسلامية في هذه العصور .على الرغم من أن الحديث عن الجوانب الفكرية والثقافية فيه ،يصبح في مثل هذا البحث المحدود الصفحات أمر بالغ الصعوبة ذلك لأن حجم البحث لا يكفي ليكون مسرداً للعناوين بله التفاصيل، لقد شهدت مختلف الأمصار العربية والإسلامية نهضة علمية وثقافية وفكرية منقطعة النظير إبان ذلك العصر ، تمثلت في مظاهر عديدة سنأتي على ذكر بعضها .

قبل ذلك ينبغي الإشارة إلى أن ما يلفت الأنظار بالفعل هو ازدهار العلم والثقافة العربية في بلدان لا يمكن أن يتطرق الذهن إلى إمكانية وجود ثقافة عربية أو علوم عربية أو علوم تطبيقية بلغة عربية فيها .إذ قد لا يكون غريباً أو عجيباً ازدهار متخلف العلوم والآداب في مصر أو العراق أو الشام أو اليمن أو غيرها في ذلك العصر – وإن أنكر ذلك بعض المقلدين أو المتعجلين – لكن أن يوجد شيء من ذلك في وسط إفريقيا وغربها وفي جنوب أسيا ووسطها ،فهو أمر عجيب وغريب بل قد يكون مستبعداً ، فإن وجد من ذلك الكثير الطيب فسيكون أمراً بمنتهى الغرابة .ويضاف كدليل من أدلة الازدهار . فقد أزدهر العلم والثقافة والأدب باللغة العربية في السنغال ومالي والنيجر ، بل وتأسست المكتبات الكبرى التي تعج بمختلف الفنون ، ونبغ هنالك علماء كبار ألفوا في مختلف الفنون ، ويأخذك العجب إذا علمت أن أحد الملوك آنذاك اشترى قاموساً بثمانين مثقالاً من الذهب . وبطبيعة الحال حفظ لنا الرحالة والمؤرخون جانباً من الأسماء اللامعة في تلك البقاع كما فعل القلقشندي وابن بطوطة والزركلي١٣ . لقد تعددت وتنوعت جوانب ازدهار الثقافة والفكر في ذلك العصر تنوعاً ملفتاً للنظر في مختلف مجالات العلوم ومختلف مجالات الحياة ، ومهما قيل أو كتب سيظل ما يقال أو يكتب قليلاً في حق ذلك العصر ،إلا أنه جهد المقل ومن باب قول الأول (حسبك من القلادة ما أحاط بالعنق) ،وهذه بعض مظاهر الازدهار الثقافي والأدبي فيما يأتي .

١ – المراكز العلمية والجامعات :

انتشرت المراكز العلمية والجامعات والمدارس والأربطة التي توفر للطلاب فضلا عن المعلمين والعلماء كل ما يحتاجون من مساكن وغذاء ورعاية صحية ، ومن تلك المراكز المشهورة الكبرى : الأزهر في مصر ، والنجف في العراق ، والزيتونة والقرويين في المغرب العربي، كما انتشرت في مكة ، والمدينة ، والحجاز ،وغرناطة ، وزبيد ، وتعز، وصنعاء ، وصعده ، وذمار ، وحضرموت ، وعدن في اليمن ، ولو أردنا الاستطراد في ذكر بعض الانجازات التي تحققت بفعل تلك المراكز العلمية لطال بنا المقام .

٢ – المكتبات العلمية :

أنشئت في أرجاء العالم الإسلامي الكثير من المكتبات العلمية الخاصة والعامة ، والتي وفرت المراجع في مختلف الفنون والعلوم وبلغات متعددة١٤ وكانت تحتوي على مئات الآلاف من الكتب .ومن ذلك ما ذكره المقريزي على سبيل المثال عن مكتبة القاهرة التي تحتوي على مئة

وعشرين ألف مجلد[١٥] . ولم يكن غريباً أن يقوم الخلفاء والولاة والأمراء بشراء الكتب والمؤلفات من مؤلفيها بأثمان باهظة كما سبقت الإشارة إلى ذلك .

٣ - العلماء والمفكرون :

زخر هذا العصر بعدد كبير جدا ممن العلماء والمؤلفين فاق جميع العصور السالفة واللاحقة ، ومن يرجع لمعاجم المؤلفين يجد ذلك واضحاً جلياً ، ويجد أن ذلك العدد الغفير من العلماء والمفكرين والشعراء كانوا يتوزعون في مختلف أرجاء العالم الإسلامي ، يجد أنهم توزعوا أيضا في مختلف فترات هذا العصر من أوله إلى آخره ، ويجد أيضاً أنهم توزعوا على مختلف العلوم فمنهم العقدي والمفسر والمحدث والمؤرخ والفقيه والأصولي والمختص بالجرح والتعديل وعلم السير والمغازي والجغرافي والكيميائي والرياضي والفلكي والمنجم والنحوي والصرفي والبلاغي واللغوي والطبيب والمهندس وعالم البحار والمتخصص بالشؤون العسكرية وغيرها ، بل وجد أنهم بين عالم موسوعي ألم بالعديد من العلوم وبين عالم متخصص ، مع العلم أن هؤلاء من له مؤلفات بلغت المئات بل تجاوزت مؤلفات بعض المؤلفين الألف مؤلف كما ذكر ذلك عن ابن طولون والسخاوي والسيوطي وابن تيمية وغيرهم .ومن أولئك على سبيل المثال الأسماء الآتية : عز الدين بن عبد السلام (ت ٦٦٠) ، وابن خلكان (ت٦٨١) ، وشيخ الإسلام ابن تيمية (ت٧٣٨) ، وابن كثير (ت٧٧٤) ، وابن قيم الجوزيه (ت٧٥١) ، والذهبي (ت٧٤٨) ، وابن دقيق العيد (ت٧٠٢) ، والمزي (ت٧٤٤) ، والقلقشندي (ت٨٢١) ، والشاطبي ، وابن خلدون(ت٨٠٩) ، والمناوي (ت١٠٣١ هـ) والمقريزي (ت٨٤٠ هـ) وابن عصفور (ت ٧٧٩) ، وأبو حيان (ت٧٤٥) ، والرضي الاسترابادي (٦٨٦) ، وعبد القادر البغدادي (ت١٠٩٣ هـ) وابن هشام (ت٦٧١) والسيوطي (ت٩١١) والنووي (ت٦٧٦) والقرافي (ت ٦٨٤) وابن رجب (ت٧٩٥) وتقي الدين الحصيني (ت٨٢٩) وابن عربشاة (ت٩٢٣) وابن ناصر الدين (ت٨٤٢) والسخاوي (ت٩٠٢) وابن حجر العسقلاني(ت٨٥٢) والبقاعي (ت٨٨٥) والقسطلاني (ت٩٢٣) والعراقي (ت٨٠٦) والهيثمي (ت٨٠٧) ومحمد ابن طولون (ت٩٥٣) والتلمساني (ت١٠٤١) الجرجاني (ت٨١٣) ولسان الدين بن الخطيب (ت٧٧٦) والملا على قاري (ت١٠١٤)والبرهان فوري (ت٩٧٥) والدميري (ت٨٠٨) وعبد الرحمن بن عمر الصوفي(ت٩٨٦) محمد ابن منكلي وابن النفيس والخوارزمي والإدريسي والفلاسفة ،وعلماء اليمن الذين لم يعرف لهم نظير أمثال الإمام محمد بن إبراهيم الوزير والشيخ إسماعيل المقري والشيخ الحسن بن أحمد الجلال (ت١٠٨٤) والشيخ صالح بن مهدي المقبلى (١١٠٨) والأمام محمدٌ بن اسماعيل الصنعاني (ت١١٨٣) والأمام الشوكاني (ت١٢٥٠) والذي شهد نهاية هذا العصر وأرخ لنهايته في كتابه (البدر الطالع) وقد سبقت الإشارة إليهم .

٤ - ازدهار الحركة العلمية والتأليف :

أما بالنسبة للجوانب الثقافية والفكرية والأدبية والعلمية فسبقت الإشارة إلى شيء من الحديث عنها ، لكن ينبغي التأكيد على جملة من الأمور هي من الأهمية بمكان حول تلك

الجوانب –إذ لم تشهد الأمة نمواً كما شهدته في هذا العصر سوءاً من حيث وجود كبار العلماء والمفكرين والمجددين في مختلف العلوم، أومن حيث ازدهار حركة التأليف التي يمكن القول إنها فاقت ما قبلها ، بل يعد ذلك العصر هو عصر استقرار وانتشار العلوم بعد انتهاء عصور الجمع والتأصيل ، وتتجلى النهضة في العدد الكبير من العلماء ، وبروز أعلام شعرية كبيرة لا تقل في الجوانب الفنية عمن سبقها ، كما أنها تتجلى في تلك المؤلفات المتخصصة في الشعر والنثر وغيرها . ومن يرجع إلى التراجم التي ألفت في ذلك العصر يجد عدداً كبيراً من الأدباء والشعراء والعلماء والمفكرون ، ومن يرجع أيضاً إلى كتاب كشف الظنون وذيله وهما من نتاج ذلك العصر والى كتاب معجم المؤلفين لعمر رضا كحالة يجد ذلك واضحاً جلياً .

ولم يكن ذلك في العلوم الشرعية فحسب ،وإنما في العلوم التطبيقية أيضاً إذ لم تشهد الأمة في عصورها السابقة ما شهده هذا العصر من ازدهار وتطور في مختلف العلوم التطبيقية كالطب البشري والبيطري والهندسة وعلم الفلك والحساب والجغرافيا١٦ وعلم البحار وعلم الأحياء والكيمياء وبعض الصناعات وغيرها ، وبرز علماء كبار في تلك المجالات ، وأحب هنا أن أحيل إلى مرجعين اثنين اهتما بالموضوع هما: الجامع في تأريخ العلوم عند العرب للدكتور : محمد عبد الرحمن ، وموسوعة تأريخ العلوم العربية ١٧ ،لمجموعة من المؤلفين.

إذ تؤكد هذه المصادر أن هذا العصر شهد حركة علمية واسعة ساعدت في تقدم العلوم القديمة وتطورها ، أو في ظهور علوم جديدة سواء أكانت تلك العلوم شرعية أو أدبية أو تطبيقه أو عسكرية أو جغرافية أو رياضية ، ومما يذكر هنا على سبيل المثال : علم الاجتماع : مقدمة ابن خلدون (تـ٨٠٩) . وفي العلوم العسكرية :الأدلة الرسمية في التعابي الحربية لمحمد بن منكلي (١٦) ، والعز والمنافع للمجاهدين في سبيل الله بالآيات والمدافع لإبراهيم المعجام (تـ١٠٨٤) .

علم الطب : تم اكتشاف الدورة الدموية (ابن النفيس تـ٦٨٧ هـ) والجامع لمفردات الأدوية والأغذية ، والمغني في الأدوية المفردة لابن البيطار (القرن السابع) والتذكرة الهادية والذخيرة الكافية في الطب وتحفة الحكيم في الطب لإبراهيم السويدي (تـ٦٩٠) والضياء الكامل في شرح الشامل في الطب (إبراهيم السوبيني (تـ٨٥٨) . وفي علم الفلك : اليواقيت بمعرفة المواقيت لإبراهيم بن على الأصبحي (تـ٦٦٧) وبرز عبد الرحمن بن عمر الصوفي (تـ٩٨٦) كأكبر عالم في هذا المجال ، وألف فيه إبراهيم الأرولي (تـ١١٩٥) : الأعمال الفلكية ، ووسيلة الثقات لفهم آلة المقنطرات لإبراهيم الزمري (تـ١١٩٥) .

علوم التأريخ : البداية والنهاية لابن كثير ، التوبيخ لمن ذم التأريخ للسخاوي ،والعبر في تأريخ من غبر للذهبي ، وتأريخ ابن خلدون . وفي الجغرافيا : رحلة ابن بطوطة (تحفة النضار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار (تـ٧٧٩) وصفة الأرض في خمسة آلاف بيت لإبراهيم رزقاعة (تـ٨١٦)والإدريس الذي رسم الأرض على صورة كرة.

وقد نالت علوم اللغة والأدب من نحو وصرف وبلاغة وغيرها إهتماماً كبيراً، لم تشهده من قبل ففي هذا العصر ظهرت أهم المعاجم العربية مثل : لسان العرب لابن منظور (تـ٧١١)

، والقاموس المحيط للفيروز أبادي (تـ٨١٧) ، وتاج العروس للمرتضي الزبيدي (تـ١٢٠٥ هـ) ، وفي النحو : ألفية ابن مالك (تـ٦٧٢ هـ) ، وشروحها لابن هشام (تـ٧٦١ هـ) وابن عقيل (تـ٧٦٩ هـ) ، وابن الناظم (محمد بن محمد بن عبد الله بن مالك) (تـ٦٨٦ هـ) ومؤلفات ابن هشام الأنصاري (تـ٧٦١) النحوية ومنها شرح الألفية السابق وكذلك مغني اللبيب وشرح شذور الذهب وشرح قطر الندى وغيرها . ومؤلفات السيوطي (تـ٩١١) النحوية ومنها الألفية وجمع الجوامع وشرحه همع الهوا مع والأشباه والنظائر وغيرها ، وفي الصرف : الممتع في التصريف لابن عصفور (تـ٦٦٩ هـ) شرح الشافية للرضي الاسترابادي (تـ٦٨٦ هـ) ، وفي البلاغة نجد مفتاح العلوم للسكاكي والإيضاح في علوم البلاغة للقزويني (تـ٧٣٩) وألفية البيان والمعاني لإبراهيم القباقيبي (تـ٩٠٠) وصبح الأعشى في صناعة الإنشاء للقلقشندي (تـ٨٢٠) نهاية الأرب في فنون الأدب لشهاب الدين النويري (تـ٨١٠) وفي المجاميع الشعرية نجد الحماسة البصرية لصدر الدين على ابن أبي الفرج البصري (تـ٦٥٩ هـ) ، وفي بقية علوم العربية : خزانة الأدب لعبد القادر البغدادي (تـ١٠٩٣ هـ) . نفح الطيب للتلمساني (تـ١٠٤١) ، ، ومن المقامات : مقامات التبريزي ، إبراهيم التبريزي (تـ١٠٦٥) ومقامات السيوطي (تـ٩١١)

علم العقيدة : مؤلفات ابن تيميه وابن القيم والشوكاني والصنعاني وابن عبد الوهاب وغيرهم وفي علم الفقه : المجموع شرح المهذب (النووي) ،والمغني (ابن قدامة) ،وسبل السلام (ابن الأمير الصنعاني) والدراري المضيئة ونيل الأوطار (الشوكاني) .وفي علوم القرآن والتفسير : الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (تـ٦٧١) والبحر المحيط لأبي حيان ولباب التأويل في معاني التنزيل للخازن (تـ٧٢٥) ،وتفسير ابن كثير ،وفتح القدير (الشوكاني) ،وملح البيان في تفسير القرآن إبراهيم الجعكفي (تـ١٠٣٠) ونزهة البررة في القراءات الأربع عشرة لإبراهيم الجعبري (تـ٧٣٢) والقواعد السنية في قراءة حفص من طريق الشاطبية لإبراهيم العدوي في القرن الحادي عشر ، وفي إعجاز القرآن : (نظم الدرر في تناسب الآيات والسور)لإبراهيم البقاعي (تـ٨٨٥) – الحديث وعلوم الحديث وشروحه ألف في ذلك العصر معظم شروح أمهات الحديث كفتح الباري شرح صحيح البخاري لابن حجر (تـ٨٥٢) وغيره وشرح صحيح مسلم للإمام النووي (تـ٦٧٦)

–التراجم : لم يحظ عصر بهذا الفن كهذا العصر سواء في تراجم الغابرين أو في تراجم المعاصرين ،من شعراء وملوك وأدباء وغير ذلك ، فقد ألف في التراجم العامة والمتخصصة الكثير من العلماء المؤلفين ، واستطاعوا تغطية ذلك العصر من بدايته إلى نهايته ،وكل هؤلاء المؤلفين من الأعلام الكبار المشهورين ،ومؤلفاتهم مطبوعة متداولة منها : نور القبس للحافظ اليغموري (تـ٦٧٣) وبغية الوعاه للسيوطي (تـ٩١١ هـ) ومن ذلك مؤلفات ابن حجر العسقلاني (تـ٨٥٢ هـ) ومنها الدرر الكامنات في أعيان المائة الثامنة ووفيات الأعيان لابن خلكان (تـ٦٨١) وسير أعلام النبلاء للذهبي (تـ٧٤٨) وفوات الوفيات للكتبي (تـ٧٦٤) والوافي بالوفيات (ت٧٦٤) وطبقات الشافعية للسبكي (تـ٧٧١) والضوء اللامع لأهل القرن التاسع للسخاوي (تـ٩٠٢) والكواكب السائرة في أعيان المائة العاشرة لنجم الدين الغزي (تـ١٠٦١) وخلاصة الأثر في أعيان القرن

الحادي عشر لمحمد أمين الطبري (ت١١١١) والبدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع للإمام الشوكاني (ت١٢٥٠) وكتاب حياة الحيوان الكبرى للدميري وكذلك الحال بالنسبة للموسيقي ومما ألف فيها : برهان البراهين لإبراهيم الإنطاكي (ت٩٢٦) . وبرهان الألحان لإبراهيم زاده (ت١٠١٤) وفي صيد الذباحة ألف إبراهيم الغزاري (ت٧٢٩) المنائح لطالب الصيد والذبائح . وفي الفلسفة وعلم الكلام : المسائل الحكميه في أربعين ألف بيت لإبراهيم المشهدي (ت١١٤٨) وفي الرياضيات ألف مجموعة منهم : إبراهيم السويني (ت٨٥٨) : الشامل في الجبر والمقابلة .

٤ - المنظومات الشعرية التعليمية :

لعل أول من اهتم بالاحتفاظ بأصول العلوم المختلفة في صورة منظومات هم العرب المسلمون الذين انطلقوا في الاهتمام بذلك من منطلق علمي بحت قائم على أن الحفظ هو أساس الفهم ،ومن لا يحفظ لا يفهم وأن الذي يحافظ على إتقان العلوم هو الحفظ ، وأن ما يعسر فهمه يسير إذا ما أتقن حفظه ولو بعد مدة من الزمن ، بينما من اعتمد على الفهم المجرد فإنه معرض لزوال ذلك الفهم المجرد الذي لم يحط بإطار محفوظ ، من هنا كان اهتمام العلماء بالمنظومات ملحوظاً في هذا العصر ،وذلك في مختلف العلوم ،ومما يذكر هنا ألفية ابن مالك في النحو وألفية العراقي في مصطلح الحديث وألفية السيوطي في النحو وفي المصطلح وغيرها مما هو ذائع مشهور ، لكن ما أريد التركيز علية هنا هو إدخال مختلف العلوم في هذا المجال ، فقد نظم أبو زيد عبد الرحمن الفاسي المتوفى سنة (١٠٩٦ هـ) منظومة بلغت سبعة عشر ألف بيت سماها (الأقنوم في مبادئ العلوم) اشتملت على نحو مئة وخمسين علماً١٨ .

٥ - ظهور شعراء كبار :

كثر الشعر وكثر الشعراء في ذلك العصر كثرة ملحوظة ، وبرز عدد كبير منهم ، ومنهم : ابن زيلاق الموصلي (٦٦٠) وشرف الدين الأنصاري (٦٦٢) وشمس الدين الكوفي (ت٦٦٥) وشهاب الدين التلعفري (ت٦٧٥) ،،، ، والشاب الظريف (٦٨٧) وشرف الدين محمد بن سعيد البوصري (٦٩٥) وسراج الدين الوراق (٦٩٥) والشهاب محمود (ت٧٢٥)وابن الوردي (ت٧٤٩)وصفي الدين الحلي (ت٧٥٠) وابن نباته لمصري (ت٧٦٧) وبهاء الدين النبهاني (ت٨١٥) ، وابن حجة الحموي (ت٨٣٧) وفخر الدين بن مكانس (ت٨٦٤) وفضولي البغدادي (ت٩٦٣) وابن النقيب (ت١٠٨١) ، وابن معتوق الموسوي (ت١٠٨٧) ، وحسين بن على العشاري (ت١١٩٥) ، وشعراء اليمن والأندلس١٩ .

الدولة الرسولية وتشجيع العلم والأدب(أنموذجاً):

استقصاء الأمثلة على تشجيع الحكام للعلم والأدب غير ممكن ، ولكننا سنأخذ مثالاً واحدا هي الدولة الرسولية ،وحسب ما أورده باحث متخصص رصين هو عبدالله الحبشي في كتابه القيم (حياة الأدب اليمني في عصر بني رسول) الذي يقول فيه–ونحن هنا ننقله بنصه لأنه حجة في موطن النزاع– : قام ملوك هذه الدولة ببناء المنازل الخاصة بالعلماء ،ووفروا لهم كل ما من شأنه توفير الاستقرار لهم فضلاً عن ذلك توفير السكن والتغذية للطلاب، .ثم يواصل القول :"انتشر

العلم في عصر بنى رسول وعم أكثر المدن والقرى اليمنية .وكان العلم قد قوي شانه بعد ذلك وأصبح له مراكز علمية كبيرة يؤمها الطلبة من كل صوب بل أصبحت مدينة زبيد ثالثة المدن العلمية في جزيرة العرب بعد مكة والمدينة يفد إليها العلماء بعد فراغهم من الآخذ عن علماء مكة والمدينة وكان لتشجيع ملوك الدولة الرسولية للعلماء أثر في إحياء تلك النهضة الفكرية الكبيرة في اليمن ومنهم من تشرب بحب العلم وساهم فيه بالعديد من المصنفات كالملك المظفر يوسف المتوفى سنة (٦٩٤) الذي صنف في علم الفلك والطب كتباً كثيرة منها كتاب (تيسير المطالب في تيسير الكواكب) و(المخترع في فنون الصنع) و(العقد النفيس في مفاكهة الجليس) وغيره من الكتب . وصنف ابنه الملك الأشرف عمر بن يوسف المتوفى سنة (٦٩٦) كتابا في (الإسطرلاب) وكتاب (التبصرة) في علم النجوم وكتاب (الجامع) في الطب و(المعتمد في الأدوية المفردة) وكتاب (المغني في البيطرة) وكتاب (التفاحة في علم الفلاحة) وفي الأنساب كتاب (طرفة الأصحاب وتحفة الآداب في الأنساب) وكتاب (الخيل) وغير ذلك من الكتب . أما أخوة الملك المؤيد فله عدة كتب أكثرها علم الأدب وكتاب في (البيزرة) والملك المجاهد على بن داود المتوفى سنة ٧٦٤ اهتم بوجه خاص بطب الحيوان فألف كتاب (الأقوال الكافية والفصول الشافية) بحث في أخره الوباء العام الذي وقع في اليمن في عصره وأهلك الكثير من خيول الدولة . وألف الملك الأفضل عباس بن على المتوفى سنة ٧٧٨ مصنفات في عدة علوم كعلم السياسة صنف فيه كتابه(نزهة الظرفاء وتحفة الخلفاء) وهو مبوب على فصول . وفي علم الزراعة وضع كتابا بعنوان (بغية الفلاحين في الأشجار المثمرة والرياحين) ووضع في علم التاريخ عدة كتب جيدة ككتابه (العطايا السنية والمواهب الهنية في المناقب اليمنية) وكتاب (نزهة العيون في طوائف القرون) ، وفي الأنساب كتاب (بغية ذوي الهمم في معرفة أنساب العرب والعجم) وغيرها .

اشتغال ملوك الدولة الرسولية بالتأليف يدل على إقبالهم على العلم وحرصهم على الانتساب إليه وتشجيعه ،كما تدل على مدى انتشار العلم والثقافة في عصرهم .وقد تميزت مصنفاتهم بظاهرة فريدة قد لا تتكرر في تأريخ الفكر اليمني قاطبة وهي الاهتمام بالجانب العلمي من البحث فكتبوا في علم الفلك والطب والزراعة والبيطرة وغيرها من المواضيع العلمية التطبيقية، أما معاصروهم من الأئمة الزيدية في اليمن فقد ساهموا بدورهم في التأليف وربما فاقوا ملوك الدولة الرسولية في هذا الجانب .

بلغ من حرص ملوك الدولة الرسولية على العلم أن يتفرغوا للدراسة على فقهاء اليمن . فهذا الملك المظفر يقرأ على الفقيه محمد بن إسماعيل الحضرمي وعلى الفقيه محمد بن إبراهيم الفشلي في علم الحديث وعلى الفقيه محب الدين الطبري في علم الحديث أيضا وعلى الفقيه ابن العمك في علم النحو وكان الفقيه محمد بن عبد الله الريمي يقول طالعت كتب الملك المظفر فوجدتها كلها مضبوطة بخطه حتى من رآها يقول : لم يكن له شغل طول عمره ألا بالعلم بل بلغ الآمر بالملك المظفر أن يبعث برسالة إلى خرا سان للبحث عن النسخة الأم من تفسير القرآن للأمام الرازي لوجود نقص في نسخته فيظفر بها بعد جهد ويجد النقص كما هو عنده في نسخته .

وكان الملك المؤيد يحفظ عدة كتب من أمهات الفنون ككتاب مقدمة طاهر في النحو وكتاب كفاية المتحفظ في اللغة والجمل للزجاجي والتنبيه للشيرازي وغيره ٠

كان الرسوليون يحرصون على مجالس العلم والمشاركة فيها وقد جعلوا شهر رمضان خاصا بمقابلات العلماء والاجتماع بهم ويصف ابن المقري مجالسهم في شعره فيقول مخاطبا الملك الأشراف :

وحلقة علم يسقط الطير فوقها منزهة الأرجا عن اللغو والهجر
بها ظل أهل العلم حولك عكفا كما عكفت زهر النجوم على البدر

وهذا يجرنا إلى الحديث عن تكريم الدولة الرسولية للعلماء وتشجيعها للبحث العلمي ٠ وقد كرمت الدولة الرسولية العلماء في شخص الفقيه العلامة محمد بن عبد الله الريمي عندما انتهى من كتابة موسوعته الفقهية (التفقيه شرح التنبيه) بأن حمل كتابه على رؤوس الطلبة إلى قصر الملك وكافأه علية بثمانية وأربعين ألف درهم ٠ ويقال إنه أول ما دخل على الملك المجاهد أعطاه أربعة شخوص ذهبية وزن كل واحد منها مائة مثقال وكتب على كل واحد منها شعرا:

إذا جادت الدنيا عليك فجد بها على الناس طراً قبل أن تتفلت
فلا الجود يفنيها إذا هي أقبلت ولا الشح يبقيها إذا ما تولت

وعندما حمل كتاب (الاصعاد في الاجتهاد)للفيروزبادي إلى باب السلطان الأشراف احتفل بالفراغ منه بالطبول والاغاني وكافأه عليه بثلاثة آلاف دينار ، وكان ملوك الدولة الرسولية يرغبون في العلماء ونادرا ما يسمحون لهم بالرحلة من اليمن ٠ومن طريف ما يذكر أن الفيروزبادي طلب من الملك الأشراف السماح له بالعودة إلي مكة فكتب إليه الملك الأشراف يقول : (إن هذا شيء لا ينطق به لساني ولا يجري به قلبي فقد كانت اليمن عمياء فاستنارت فكيف يمكن أن تعزم وأنت تعلم أن الله قد أحيا بك ما كان ميتا من البلد فبالله عليك ألا ما وهبت لنا بقية هذا العمر والله يا مجد الدين يميناً بارة آني أرى فراق الدنيا ونعيمها ولا فراقك أنت اليمن وأهله) ٠ وهذا يدل على إعزاز الملك الأشراف للعلماء وتكريم لهم ٠ وربما سامح الكثير منهم في ضرائب أراضيهم ومزروعاتهم ٠

وأعفى جماعة كالفقيه على بن أحمد ألا صبحي المتوفى سنة (٧٠٣) والفقيه عبد اللطيف بن أبي بكر الشرجي المتوفى سنة (٨٠٢) والمؤرخ على بن حسن الخزرجي المتوفى سنة (٨١٢) وغيرهم كثير من الصوفية وأهل الدين ٠ ويقول الحبشي إنه جرت العادة أن جميع الفقهاء في وصاب وغيرها لا يدفعون شيئاً للدولة على مزروعاتهم [٢٠] وكان تقرب ملوك الدولة الرسولية إلى العلماء صورة واضحة من صور محبتهم للعلم ٠ وقد علت الهمة ببعضهم إلى أن يراسل مشاهير العلماء خارج اليمن ويستكتبهم في القدوم إلى البلاد كما سنرى لاحق. وهو كلام لا يحتاج إلى مزيد بيان أو تعليق أو تفصيل.

شاهد آخر هو الدكتور شوقي ضيف :الذي يؤكد ذلك بقوله: "وتنهض الدولة الرسولية بعلوم العربية نهضة واسعة ،وكانوا يجزلون العطاء للعلماء فقصدوهم من كل فج"[٢١]. "ويؤسس نور الدين عمر بن على بن رسول منذ سنة (٦٢٦) دولة أسرته الرسولية ،ويبعث هو وأسرته

في اليمن نهضة شعرية ،بجانب ما بعثوا من النهضة العلمية"[٢٢] ."هذه النهضة بعلوم العربية في اليمن كانت تتسع لتشمل إمامة الزيديين في صعدة وفيما يتبعهم أحياناً من البلدان مثل صنعاء وزبيد حتى إذا دانت لهم اليمن بعد عهد الطاهريين نشروا هذه النهضة في كل مكان .وكان العثمانيون في أثناء احتلالهم لليمن يعنون بالمدارس وبتعليم العربية،وكان الزيديون ينافسونهم في هذا المضمار والزبيدي نفسه من ثمرات هذا العصر المتأخر في اليمن وهو رمز قوي لما كانت تحظى به العربية حينئذ من نشاط خصب"[٢٣]. "وكان ثراء اليمن عاملاً مهما في أن يعتني حكامها بالعربية وبالعلوم الإسلامية ومر بنا كيف أن دولة الرسوليين نهضت نهضة عظيمة بالثقافة والعلوم في اليمن . وقد أنشأت عشرات المساجد والمدارس وخاصة في زبيد وتعز وصنعاء وعدن . وكل ذلك عمل على أن تظل العربية مزدهرة في اليمن وأن تظل الأشعار تجري على الألسنة"[٢٤] ، وإلى هذا ذهب العديد من الدارسين ،منهم الأستاذ محمد أحمد مطهر الذي يقول:"وكان هذا القطر اليماني الوحيد في عزلة عن الأمم والشعوب وأدباؤه في غاية التفوق"[٢٥] ويؤيد هذا القول الشاعر الأديب أحمد محمد الشامي إذ يقول :"إن ما يسمونه عصر الانحطاط الأدبي لم تعرفه اليمن "[٢٦]،ومثلهما الدكتور سيد سالم مصطفى وعلى أحمد أبو الرجال اللذين يقولان مثل هذا القول:" . وعلى الرغم من أن اليمن عاشت حالة من الازدهار والتطور آنذاك ،إلا أنه لا يوجد ما يدل على تفردها بذلك عن بقية العالم العربي ، لأن ما ذكره هؤلاء الذين خصوا اليمن بالازدهار بسببه هو موجود في بقية العالم العربي والإسلامي وبأضعاف مضاعفة .فإن وجد في اليمن من الشعراء من أمثال ابن حمير وابن هتيمل والمقري فقد وجد في غير اليمن أمثال الحلي والصفدي والبوصيري وابن نباته وابن الموسوي والوراق وغيرهم، وإن وجد في اليمن أمثال ابن الوزير والجلال والأمير الصنعاني والشوكاني ، فقد وجد في غيرها العز بن عبدا لسلام وابن تيمية والشاطبي والهيثمي والعراقي وابن القيم والذهبي والسبكي وابن خالدون وغيرهم . ولئن بني في اليمن مدارس ومراكز للعلوم في زبيد وتعز وصعدة فلقد شهدت مكة والمدينة والنجف والقاهرة وغرناطة وقرطبة والقسطنطينية ومراكش والقيروان وغيرها أضعاف مضاعفة .ولئن وجد في اليمن ملوك وأمراء اهتموا بالعلم والعلماء وشجعوهم فإن أمراء المماليك والسلاطين العثمانيين ومن بعدهم الخلفاء العثمانيين من فعل ذلك بل أشد .ودونك جزءاً من وصية أحد السلاطين العثمانيين محمد الفاتح (ت٨٨٦) لولده الذي أصبح فيما بعد سلطاناً ،قال له : "وبما أن العلماء هم بمثابة القوة المبثوثة في جسم الأمة فعظم جانبهم وشجعهم ،وإذا سمعت بأحد منهم في بلد آخر فاستقدمه إليك وأكرمه بالمال"[٢٧].لا يكاد ينقضي عجب المرء عند الاطلاع على الحجج التي يستشهد بها أولئك على انحطاط ذلك العصر ومدى تناقضهم ،ومن ذك قولهم : إن الحكام والسلاطين وبالأخص العثمانيين قاموا بنفي العلماء والمفكرين والأدباء إلى القسطنطينية ،ثم لا يلبث هؤلاء أن يقولوا:إن السلاطين والحكام العثمانيين أهملوا العلماء والمفكرين وتركوهم في أوطانهم وبلدانهم مهملين مهمشين ،أليس ذلك مما يثير العجب ؟فإن استقدام العلماء والأدباء إلى القسطنطينية سموا ذلك نفياً وإن تركوا في أوطانهم سموا ذلك تهميشاً .

أسباب إطلاق هذه الفرية

بعد تلك الجولة كان لا بد من محاولة لسبر الأغوار و التعرف على الأسباب التي جعت أولئك يصلون إلى نتيجة كتلك على الرغم من أنه لا أدلة تثبتها ، ولا حقائق تؤكدها بعد طول تأمل وبحث ويمكن إرجاع إطلاق هذه الفرية إلى الأسباب الآتية :

١ – التقليد الأعمى لموقف كثير من أدباء ومن مثقفي أوروبا من مراحلهم التاريخية المنحطة ومحاولتهم إيجاد مراحل وعصور تضاهي عصور أوروبا ، لأن أوربا تقسم تأريخها إلى عصور وتطلق على هذا العصر عصر الانحطاط والظلام . وكثير من الباحثين لم يكلفوا أنفسهم عناء البحث وبذل الجهد في استخراج المعلومات الصحيحة المتعلقة بذلك العصر ، فلجئوا إلى ما كتبه الأخر وبخاصة الأخر الغربي ، ليس فيما يخص تأريخهم وثقافتهم هم ، لا بل فيما يتعلق بصميم فكرنا وأدبنا وثقافتنا وتأريخنا ، وكذلك الحال بالنسبة لمؤسساتنا الفكرية والثقافية وكذلك الجهات الرسمية التي لها علاقة بالجانب الثقافي والفكري التي لم تقم بما يجب عليها من دعم الباحثين للقيام بتلك الأبحاث ، بدلا من ذلك وقع هؤلاء الباحثون وتلك المؤسسات في التقليد الذي هو وسيلة العاجزين ، فحصل الخبط الذي اكتشف بعضه البعض ، وما زال الكثير منها مؤجلا إلى حين .وبين يدي مثالان أذكرهما هنا :

٢ – يقول :جورجي زيدان في سياق حديثه عن كيفية التعرف بها : يقول وعولنا في تعريف البعض الأخر على تأريخ آداب اللغة العربية للأستاذ بر وكلمن الألماني فانه خزانة وافية في هذا الشان . ص٥ من تأريخ آداب اللغة العربية ج٢ طبعة دار مكتبة الحياة – بيروت – لبنان ، ١٩٨٣م . أقول : ثم ماذا كانت نتيجة ذلك التقليد الأعمى . وهكذا تصبح النتيجة خاطئة إذا كانت نتيجة ذلك التقليد خاطئة إذا كانت المقدمات خاطئة . مثال : انظر كلام محمد عبد المنعم خفاجي في ديوان البرعي ،ص ١٧٨ ،

ب—الكلام نفسه الذي يقال في الأفراد يقال في لمؤسسات اللاتي إذا حصل خلاف في مسالة ما هرعت إلى المستشرقين لفصل ذلك النزاع ، ومما يذكر في هذا المجال ما فعلته إحدى المؤسسات التي أصدرت موسوعة خاصة ببلدها العربي ، وبينما هي تترجم لأحد شعرائها الكبار في العصر المظلوم (العصر الوسيط) والذي اختلف المستشرقون في تأريخ ولادته ووفاته إذا بهذه المؤسسة تلجأ إلى المستشرق روت لفصل النزاع فيجدون عند جهينه (روتر) الخبر اليقين . انظر: الموسوعة اليمنية ج٢ص٧٣٢) مؤسسة العفيف – صنعاء الطبعة الأولى ١٤١٢هـ / ١٩٩٢) . وانظر: رسالة الدكتور محمد الريمي (دراسة تحليله البرعي) ص٧٣، رسالة علمية لنيل الماجستير من جامعة الخرطوم مخطوطة على الحاسوب

٢ –الجهل بتأريخ وفكر وآداب مراحل وعصور الأمة المختلفة ،وبخاصة ذلك العصر ،وتلك المرحلة ،حتى أن كثيرا من الباحثين في تلك الحقبة بالذات استندوا على كتابات بروكلمان في كتابيه(تأريخ الأدب العربي) و(تأريخ الشعوب الإسلامية) ،والذي بدا فيهما موضوعيا أكثر ممن نقل عنه٢٨ .ومن جهل الشيء عاداه .

٣ –القطيعة التي حصلت بين مثقفي ومفكري الأمة وبين تراثهم بسبب حركات التشكيك

المستمرة في جدوى ذلك التراث من جهة ، وبسبب ما حصل من تخلف وجهل أعقب تلك الفترات ، وان حصل في زمن ما سمي بعصر النهضة تعليم موجه ومسير في اتجاهات معينة ،لم يستطع أن يخرج لنا أعلاماً كتلك الأعلام التي تخرجت من الكتاتيب والحلقات المسجدية،وافتقاد الأمة في هذا العصر على شاعر بمستوى البحتري أو أبي تمام أو المتنبي أو شوقي خير برهان على جناية دعاة التغريب والحداثة الذين تسببوا في إعقام الأمة عن الإبداع .

٤ –حركة النهب والسرقة والإتلاف والإهمال لذخائر الأمة من المخطوطات في مختلف العلوم الشرعية واللغوية والتطبيقية ، والتي تولى كبرها مجموعات من المشارب يأتي على رأسها القوى (الاستعمارية) وحركات الاستشراق وغيرها .

٥ –العزوف عن القراءة والاطلاع من قبل هذه الأجيال السادرة التي أصبحت تتلقى ثقافتها مرئية ومسموعة فحسب لتترسخ الأمية وتنتشر ،وصدق علينا قول بيجن بأننا أمة لا تقرأ وإذا قرأت لا تفهم وإذا فهمت لا تعمل .

٦ –الإستشراق الحاقد وتلامذته الأبرار الذين أغلبهم من يهود ونصارى مصر والعراق وبلاد الشام أو من الفرق الشاذة وغيرهم من أصحاب المرايا المقعرة الذين ينظرون للتراث نظرة ازدراء جاعلين المعيار والمقياس هي الثقافة الغربية التي نظروا إليها بمرآة محدبة،كما سبق .

٧ – النظرة القومية المعادية التي أصلها يهود ونصارى الشام ،تلك النظرة التي تجاهلت حقائق الدين والتأريخ والجغرافية ،فنظرت إلى الحكم المملوكي والعثماني على أنه احتلال ،ونظرت للعرب على أنهم مُستَّعمرون . أو حاولت أن تجد للعرب تاريخاً لم يكن موجوداً ، لأنه ليس للعرب حضارة وثقافة غير الحضارة والثقافة الإسلامية ،أو بضع قصائد في الخمر والمرأة،مما ولد وأوجد تمزقاً في النظر للتأريخ والحضارة العربية الإسلامية ،كما أوجد حالة من الانفصام الشعوري والنفسي لدى الأجيال العربية والإسلامية المعاصرة ، . ومعلومٌ أن من كتب التاريخ عن العصور المتأخرة هم أعداؤه من دعاة القومية وجلهم يهود ونصارى ،حاولوا تشويهه بكل السبل وصدق من قال:

وعين الرضا عن كل عيب كليلةٌ ولكن عين السخط تبدي المساويا [٢٩]

٨ –الانهزامية التي أصابت معظم المثقفين المسلمين أمام ثقافة الغالب المنتصر لأن المغلوب مولعٌ بتقليد ثقافة الغالب والغالب يحاول فرض ثقافته على المغلوب المنهزم [٣٠] ، فتسبب هؤلاء في انهزامنا واستعمارنا وهواننا، لأننا لم نستعمر لأسباب اقتصادية أو عسكرية أو سياسة ،و إنما استعمرنا لأن فينا قابلية للاستعمار كما يقول ملك بن نبي .هذه النظرة الانهزامية والدونية لم تقف عند حدود العصور المتأخرة ،إنما امتدت لتشمل كل التأريخ العربي الإسلامي تقول الشاعرة والناقدة نازك الملائكة في أوج حماسها للحداثة وقبل أن ترجع عن تصرفها كما في (قضايا الشعر المعاصر) "ما لطريقة الخليل وما اللغة التي استعملها آباؤنا منذ عشرات القرون ؟!ألم تصدأ لطول ملامستها الأقلام والشفاه منذ سنين؟ ألم تألفها أسماعنا ؟وترددها شفاهنا ،وتلكها أقلامنا حتى مجتها وتقيأتها"[٣١] فا لخبث والحقد مقصوران على ما هو إسلامي فقط وهذا يفسر

حشو الشعر العربي الحديث بالرموز والأساطير الوثنية اليونانية والرومانية أو المسيحية الصليبية والا ما معنا قول الشاعر العربي المسلم :

اشتهي أن أكون صفصافة قرب الكنيسة
أو صليباً من الذهب على صدر عذراء
تحمل السمك لحبيبها العائد من المقهى [٣٢]

٩ –التعميم الجائر الذي أخذ شواهد قليلة مشهورة وأمثلة رديئة وجعل من هذه الأمثلة نموذجاً لنتاجات هذا العصر ، وهذه طريقة غير موضوعية تجافي العلم ، إذ إن الجيد والرديء موجودان في علم الجهابذة ودواوين الفطاحلة في كل العصور.

١٠ –إهمال المناخ العام والسياق التاريخي للعصر في بعديه الزماني والمكاني وإخضاعه للمقاييس الحديثة والغربية ، وهي مقاييس بعيدة عن تأريخنا وواقعنا مما جعلنا نجلد أنفسنا ونسلخ جلودنا ونتبرأ من تراثنا ونتهمه بالجمود ،وحكمنا هذه المقاييس في حكمنا على التاريخ والأدب والثقافة والعلم والعلماء ، حتى وصل الأمر باتهام العقلية والثقافة العربية الإسلامية . لأنهم يرون أن التجديد كما يقول الرصافي " هو تقليد الغربيين في شعرهم وأدبهم مع أن الشعر هو الوحيد الذي يستحيل فيه التقليد "[٣٣] ،هذا الرفض الصارخ للتقليد والتبعة للغرب الذي يصدر عن بيئة مغايرة لبيئتنا وثقافة مختلفة عن ثقافتنا مما يجعلها تهدد وجودنا وتلغي تميزنا وتسحق شخصيتنا وهويتنا لأنها تعمل بإصرار وجلد على الاستلاب الثقافي الشامل ولا تكتفي بالاستفادة الواعية القائمة على الانتقاء والاختيار لما يلائم خصوصيتنا الثقافية وذائقتنا الأدبية ،أنتجت أدباً لا يقرأ ولا يفهم ولا يكتب ،وقد حكم عليه الأدباء العرب بالموت ،بسبب أن المتفرنج –كما يسميه الزهاوي –من (الشعر النثري الذي يعيش في أرض لا تلائم نبته ، وستجده بعد قليل قد يبس بأشعة الشمس التي تطلع في سمائه حارة فيصير رماداً ويبقى الشعر العربي وحده "[٣٤] .ولو عاش هؤلاء الأعلام إلى اليوم لقرت عيونهم وقد رفضت الذائقة العربية محاولة الإلحاق والضم تلك وخرج زعيم الحداثة يعترف بفشلها .فعلى الرغم من الهالة الكبيرة والمؤسسات الأكاديمية والإعلامية التي امتلكها أصحاب هذه النظرية ،الا أنها لم تستطع تجاوز هذه المنابر والوصول إلى الجمهور ،الأمر الذي جعله يعيش في أبراج عاجية بعيدا عن هموم ومشاعر وعقول المجتمع وجعل هذه النخبة تخاطب بعضها البعض .

النتائج والتوصيات

الكثير من الأحكام والأقوال تواجهنا منذ الصغر فنتلقاها على أنها مسلمات وحقائق لا تقبل النقاش و الجدل والنقد ، ومن ذلك تسمية العصرين المملوكي والعثماني بـ (عصر الانحطاط أو العصور المظلمة) ، هذا الحكم الذي طمس حوالي ٦٠٠ عام من تاريخ الأمة العربية الإسلامية الممتد على مساحة زمانية كبيرة تعدل نصف تاريخنا العربي الإسلامي من العام (٦٥٦هـ) تاريخ سقوط بغداد بيد التتار إلي العام (١٢١٣ هـ) تاريخ سقوط مصر بيد الفرنسيين ، هذا التعميم الظالم الذي يفتقد إلى العلمية والموضوعية ،والأغرب في ذلك وصف العصر

الحديث الذي يؤرخون له من دخول الحملة الفرنسية لغزو مصر بعصر النهضة والعصر الحديث وما إلي ذلك من الأوصاف ، إذ كيف يكون غزو بلد واحتلاله وانتصار العدو عليه نهضةً وتقدماً . . وليس من علة لهذا الاعتقاد الراسخ إلا رسوخه في مناهجنا الدراسية وكتبنا وأدبياتنا ووسائلنا الإعلامية والثقافية لينطبق علينا قول المجنون :

أتاني هواها قبل أن أعرف الهوى فصادف قلباً خالياً فتمكنا [٣٥]

قد لا يعرف أول من قال هذا الحكم بالتحديد ،لكن المؤكد أن المستشرقين وتلامذتهم الانهزاميين أصحاب(المرايا المقعرة) الذين ينظرون إلى العقلية العربية الإسلامية نظرة احتقار وتهوين ، وإلى العقلية الغربية نظرة تهويل وإكبار أي بـ (مرايا محدبة) [٣٦] . وقد ساعد على ترسيخ ذلك عوامل سياسية واجتماعية وثقافية ،وكما قيل : إن التاريخ يكتبه المنتصر .

الإنسان حينما يعيد النظر في كثير من الأقوال التاريخية والنقدية المتداولة ومدي صحتها وصوابها تصيبه الحيرة والاضطراب من كثرة المغالطات وقلب الحقائق ،بالنسبة لأدب هذين العصرين بعد إن أشار هؤلاء "إلي نتاجه الأدبي إشارة عجلى .وأتوا ببعض الشواهد القليلة ليبرهنوا على صحة دعواهم ،ولكن هذه الشواهد القليلة غير مقنعة بهذا الحكم الذي اعتقد أنه جائر "[٣٧] لأن هناك أحكاماً عامة مطلقة اتخذت بدون أسس علمية صحيحة ، وأن هناك نتائج لم تبن على مقدمات صحيحة مما ولد ثقافة مشوهة أصبحت بمرور الأيام قناعات في ضمير قطاع واسع من المثقفين فضلاً عن عامة الناس .إن هذا العصر يمتد ليشمل ستة قرون من عمر الأمة في رقعة مكانية مترامية الأطراف شملت نصف العالم القديم تقريباً ،وبالتالي فإن إصدار حكم عام على تلك المرحلة أمر في غاية الصعوبة ، تجعل أقل ما يمكن أن يوصف به ذلك الحكم إنه مجازفة .إن النظرة المحايدة الموضوعية المتجردة تكشف عن قضايا يمكن إن تعكس القضية تماما على مختلف الصعد ،لأن النظرة الموضوعية والقرارات المحايدة تثبت أن هذا العصر كان عصر ازدهار سياسي وعسكري واجتماعي وثقافي وأدبي .

– الجانب السياسي والعسكري : بالنسبة للجانبين السياسي والعسكري اللذين يقترنان عادة فلم تشهد الأمة قيادة قوية ودولة مستقرة منذ فقدت الخلافة العباسية السيطرة الفعلية على مقاليد الأمور عام (٣٣٤) إلا في هذا العصر، والتي تمثلت في وجود دولة المماليك وسلطنة العثمانيين ، والخلافة العثمانية بعد ذلك وفي هذا الجانب أيضاً : استطاعت الأمة في هذا العصر صد حملات التتار وتصفية الوجود الصليبي تماماً من الشام ، وتمكنت من الوقوف بحزم أمام محاولات الغزو الأوروبي المتمثل بالهجمات الأسبانية والبرتغالية على الشواطئ العربية سواء في الشمال الأفريقي العربي، أو على الشواطئ العربية في البحر الأحمر أو البحر العربي أو غيرها، كما أن العديد من المعارك الحربية الفاصلة كانت في هذا العصر الذي شهد معركة عين جالوت(٦٥٨)[٣٨] ، ومعركة شقحب (٧٠٢)[٣٩] وفتح القسطنطينية (٨٥٧)[٤٠] التي ظلت عصية على الفتح على مر الزمن حتى فتحت على يد العثمانيين وتحت قيادة السلطان محمد الفاتح ليصدق فيه وفيهم قول النبي –صلي الله عليه وآله وسلم – : "ستفتح عليكم قسطنطينية فنعم الجيش جيشها ونعم الأمير أميرها"[٤١] وفي فتحها استعمل المدفع العملاق لأول مرة وشهد الفتح

الإسلامي الكبير لبلاد البلقان والبوشناق حتى وصل إلى المجر ومحاصرة فينا عاصمة النمسا حالياً ، ولا يمكن أن يتم ذلك في ظل ركود اقتصادي وتمزق اجتماعي ، إنما ذلك مؤشر قوي على الازدهار الاقتصادي والتماسك الاجتماعي ولا ننسى أن هناك مداً في القرن الأفريقي والمغرب العربي والأندلس وجنوب شرق آسيا . فكيف يمكن أن يسمي هذا العصر (عصر الانحطاط) ، ويسمى عصرنا الراهن الذي لا يساوي فيه العرب والمسلمون شيئا في ميزان القوي العالمية عصر النهضة والأحياء والبعث وغيرها من الألفاظ الإيجابية التي ستوقع من سيأتي بعدنا في مشكلة المصطلحات ليصدق علينا قول الشيخ الأديب البيحاني :

سموك يا عصر الظلام سفاهة عصر الضياء وأنت شرّ الأعصر [٤٢]

– الجانب الثقافي والأدبي : خلد لنا التاريخ الثقافي والعلمي والأدبي علوم وثقافة وأدب هذا العصر ،كما خلد لنا علماء ومثقفين وأدباء ،على الرغم من محاولة التهميش والهضم والتجاهل والإهمال ، إذ إن معظم " كتبه لا تزال مخطوطةً ولم تر طريقها إلى النور وبعضها طبع من مدة طويلة طباعة قديمة قد ندر وجوده حتى غدا كالمخطوطة تقريبا"[٤٣] وقد ازدهرت العلوم والآداب في هذه العصور "بسبب توزعها بين إمارات كانت تتنافس فيما بينها علمياً وأدبياً مما جعل كلاً منها تحاول جذب العلماء إلى دائرتها ومحيطها ،وكان كثير من الأمراء أنفسهم علماء"[٤٤] لهم مؤلفات مطبوعة متداولة. وهذه شهادة باحث رصين وعالم خبير وهو الدكتور عبد الولي الشميري محقق ديوان ابن هتيمل يقول فيها:"وكان الملك المنصور(عمر بن على بن رسول)يحب العلماء،ويكرم الشعراء،ويستمع إلى الشعر الجيد،وكان له شعراء من مصر ،ومن اليمن،"[٤٥] ،وترك لنا هو وخلفاؤه مؤلفات كثيرة في مختلف المجالات، ومثلهم الزعماء السياسيون والقبليون في المناطق الأخرى ،إذ "لم يكن ثمة إمام من أئمة الزيدية،الذين ادعوا الإمامة،في القرن السادس والسابع الهجريين،الآ وأثر عنه شعر جزل فصيح"[٤٦] .وإذ كان هذا حال هؤلاء الحكام المنشغلين بالحكم ومشاكله فكيف سيكون حال العلماء والأدباء المتفرغين لأن الناس على دين ملوكهم .

عرفت هذه العصور روائع التراث وموسوعات العلماء ،إن ما يقترب من الثلثين من المؤلفات التراثية العربية والإسلامية في شتى جوانب المعرفة كان من نصيب هذه المرحلة .كما عرفت هذه المرحلة أفذاذ العلماء والأدباء قل أن يوجد لهم نظير في التاريخ القديم والحديث. وعلى سبيل المثال اليمن عرفت في هذا العصر أعلاماً في العلم والأدب لم تعرف مثلهم في أي عصر آخر ،ومنهم الشاعر ابن حمير والشاعر ابن هتيمل والشاعر الفقيه إسماعيل المقرى والشاعران الصوفيان أحمد ابن علوان وعبد الرحيم البرعي ، والشاعر على محمد الآنسي ، والشاعر الحسن الهبل كما عرفت كبار الشعراء العلماء الفقهاء كابن الوزير وابن الأمير والشوكاني والمقبلي والجلال ،وعرفت حتى نساء أمثال زينب المقدشية وزينب الشهارية. هؤلاء الذين لم تعرف اليمن لهم نظيراً خير مثال على أن العصر "لم يكن عصر خمول أو خمود إنما كان عصر أدب وفن وعلم "[٤٧] .

عرفت هذه العصور أعظم إنجازات المسلمين في العلوم الإنسانية والطبيعية كالقانون لابن

سيناء والأدوية المفردة في الطب ،كما اكتشف ابن النفيس الدورة الدموية ،كما اكتشفوا قوانين الجبر والهندسة والخوارزميات العلم الذي لازال يسمى باسم صاحبه الخوارزمي ، واكتشفوا كروية الأرض التي رسمها ووصفها الإدريسي ،ونقل ابن حزم في الملل والنحل إجماع علماء المسلمين على كرويتها [٤٨]،كما اكشفوا علم الاجتماع الذي اخترعه ابن خلدون وسماه علم العمران البشري[٤٩] .

عرفت هذه العصور أدباء كبار في الأندلس والمغرب ومصر والشام واليمن يستحيل حصرهم . وهو "رمز قوي لما كانت تحظى به العربية حينئذٍ من نشاطٍ خصب"٥٠ ،ولم تكن هذه الكتب وقفاً على بيئة دون بيئة ، إنما كانت تنتقل من بيئة إلى بيئة بسرعة كبيرة ،و"معروف أنه من أهم ما يميز الحركة العلمية العربية في جميع ديار العرب وأقاليمهم أنها عامة ، وليست خاصة بإقليم معين ، إذ إن كل ما يظهر بإقليم من مصنفات علمية سرعان ما يفد على الآقاليم الأخرى ،وسرعان ما تتعهده وتضيف إليه إضافات كثيرة"٥١ ،إذ نلتقي في كل مكان بأسماء الكتب العلمية المهمة المعروفة لنا في بغداد وغير بغداد ،وكأنه كان هناك نهر كبير للثقافة العربية كانت جداوله ونهيرا ته تجري في كل مكان وفي كل دار من أقصى الشرق في خرسان إلى أقصى الغرب في الأندلس"٥٢ . فان حصل للعلم والثقافية والأدب اهتزاز في بغداد والعراق بسبب الهجمة البربرية التترية عل شرق العالم الإسلامي فقد انتقلت مراكز الإشعاع إلي مناطق أخرى من العالم الإسلامي كمصر والشام واليمن والمغرب .

الهوامش

١) ديوان البوصيري،القرص الصلب للموسوعة الشعرية ،الإصدار الثالث.
٢)قضايا الشعر المعاصر ، نازك الملائكة، بغداد، مكتبة النهضة، الطبعة الثانية، ١٩٦٥م.ص٢٩٧،٢٩٦.
٣) صدمة الحداثة ،أدنيس ،بيروت ،دار العودة ،ط١٩٨٣،٣م،ص١٥٦.
٤) طه حسين في ميزان العلماء والأدباء ،محمود مهدي الأستنبولي ،بيروت ،المكتب الإسلامي ،ط١ن١٤٠٣-١٩٨٣،ص١٩٦.
٥) أدب الردة ، جمال سلطان ،برمنجهام، مركز الدراسات الإسلامية ،ص٨١.
٦) من أعجب ما يذكر في المجال أن واحداً من كبار الأدباء والنقاد في أوج فترت التقليد للرومنتيكية الإنجليزية في الثلث الأول من القرن الماضي اتخذ له كلبا سماه كلب أحد رموز الرومنتيكية الإنجليزي.
٧) البدر لطالع في محاسن من بعد القرن السابع ، محمد بن علي الشوكاني ، تحقيق الدكتور / حسين العمري ، بيروت ،دار الفكد ،ط١ ١٤١٤ هـ- ١٩٩٨م ،١/ ٢٤.
٨) صحيح البخاري (١٣٧٤) وصحيح مسلم (١٠١٠).
٩)صحيح مسلم (١٦٨١).
١٠)البدر الطالع في محاسن من بعد القرن السابع ، محمد بن على الشوكاني،تحقيق الدكتور:حسين العمري،بيروت،دار الفكر،١٤١٤هـ-١٩٩٨م، ص٢٤،٢٣ .
١٥) نفسه ، ٢٤ .
١١)عصر الدول والإمارات(الجزيرة- العراق -إيران)، د. شوقي ضيف ، بيروت ، دار المعارف ، ١٩٨٠ ص٨٨.
١٢)نفسه ،ص٩٢.
١٣)ينظر:إفريقيا في ظل الإ:سلام ،نعيم قداح ، دمشق،نشر وتوزيع مكتبة أطلس ،د.ت - بحوث في النقد التراثي ، هلال ناجي ،بيروت ، دار الغرب الإسلامي ، ط١ ،١٩٩٤،ص١٥٢:١٣٣.
١٤) ينظر: الدولة العثمانية ، عوامل النهوض وأسباب السقوط ، د . علي محمد الصلابي ، مصد ، دار التوزيع والنشر الإسلامية ، ط١ ، ١٤٢١ هـ ، ص٦٩.
١٥)البداية والنهاية ١٣/ ٣١٩.
١٦)الدولة العثمانية ،ص١٠٧.
١٧) وهو كتاب موسوعي شامل صدر في خمسة مجلدات عن دراسات الوحدة العربية وهو من تاليف مجموعة كبيرة من المتخصصين في تلك المجالات العلمية وأساتذة الجامعات الغربية وترجمة مجموعة من أساتذة الجامعات العربية المختصين.
١٨)الظهور الإسلامي فجر دائم وشروق مستمر،عبدالملك الشيباني ،دار المجد للطباعة والنشر ،،د.ت،ص١٢٨.
١٩)ينظر في تراجم الاعلام وأسماء مؤلفاتهم الأتي :
١ -كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون ،مصطفى بن عبدالله القسطنطي المعروف بحاجي خليفة ،بيروت ،دار الفكر ، ١٩٩١ م.
٢ - الأعلام ،خير الدين الزركلي ،دار العلم للملايين ،الطبعة الرابعة عشرة ،١٩٩١م.
٣ - معجم المؤلفين ،عمر رضا كحالة ،مؤسسة الرسالة ، الطبعة الأولى ،١٩٩٣م.
٢٠)ينظر :حياة الأدب اليمني في عصر بني رسول ، عبدالله محمد الحبشي ،منشورات وزارة الإعلام والثقافة ، اليمن ،ص:١٥٩ ١٣٢.
٢١)عصر الدول والإمارات(الجزيرة-العراق-إيران)،ص٦٦.
٢٢)نفسه ،ص١١٢.
٢٣)نفسه،ص٦٧،٦٨.
٢٤)نفسه،ص٩٠.
٢٥)مقدمة مجلة الحكمة ،محمد بن أحمد ، ع١،س١،مج١،ذي القعدة ١٣٥٧هـ،ص١٣،١٢.
٢٦)نفحات ولفحات من اليمن ،ص٣٩٩ر٤٠٠.
٢٧)الدولة العثمانية،ص١٥٥.
٢٩)ديوان الشافعي ،ص٩١.
٣٠) ينظر :مقدمة ابن خلدون،ص١١٦.
٣١)شظايا ورماد ،نازك الملائكة ، بغداد ،مطبعة المعارف ،١٩٤٩،ص٤.

٣٢)الآثار الكاملة ،محمد المناغوط ،بيروت ،دار العودة ،ط٢، ١٩٨١،ص٢٦.
٣٣)تطور الشعر العربي الحديث في العرق اتجاهات الرؤيا وجماليات في النسج ، د- على عباس علوان ، بغداد ، دار الشئون الثقافية ، ١٠٧٥، ص، ١٠٠،
٣٤)حركة البعث في الشعر العراق الحديث ،د. ماهر حسن فهمي ، القاهرة ،مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٦١م، ص ٢١٥.
٣٥)ديوان المجنون،،بيروت ، دار صادر ،ط١٤ ،١٩٩٤،ص٢١٨.
٣٦)ينظر: المرايا المحدبة والمرايا المقعرة والخروج من التيه ،د.عبدالعزيز حمودة ،إصدارات عالم المعرفة
٣٧) الحركة الشعرية زمن المماليك في حلب الشهباء ،د . أحمد فوزي الهيب ، بيروت ، مؤسسة الرسالة ، ط، ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م ، ص ٩.
٣٨) البداية والنهاية،بيروت، مكتبة المعارف، الطبعة الأولى، ١٩٨٨م ١٣ / ٢٢٠.
٣٩) نفسه١٤ / ٢٣.
٤٠)الدولة العثمانية عوامل النهوض وأسباب السقوط ،د.على بن محمد الصلابي ، مصر ،ط١،دار التوزيع والنشر الإسلامية ،١٤٢١هـ ،ص١٠٨.
٤١)المستدرك على الصحيحين (٨٣٠٠) ،أبو عبدالله محمد بن عبدالله الحاكم النيسابوري ،تحقيق :مصطفى عبدالقادر عطا ،بيروت،دار الكتب العلمية،ط١٤١١،١ هـ-١٩٩٠م،٤ / ٤٦٨.
٤٢) الخطب المنبرية ، محمد بن سالم البيحاني ،ص٢٥.
٤٣) الحركة الشعرية زمن المماليك في حلب الشهباء ،ص،١٠.
٤٤)عصر الدول والإمارات(الجزيرة -العراق -إيران) ،د.شوقي ضيف ، بيروت ،دار المعارف،١٩٨٠ص٥٤.
٤٥)ديوان ابن هتيمل(درر النحور)،تحقيق ودراسة الدكتور:عبد الولي الشميري اليمني ،سلسلة الإبداع،صنعاء،مؤسسة الإبداع للثقافة والأدب،الطبعة الأولى،١٩٩٧م ،٣ / ١٠٧.
٤٦)نفسه٣ / ١٠٨.
٤٧) نفسه ،ص،١٠.
٤٨)ينظر : الفصل في الملل والنحل ، أبو محمد على بن أحمد بن حزم ، مصر، المطبعة الأدبية ،ط١٣١٧،١هـ،٢ / ٩٧.
٥٠)ينظر :مقدمة ابن خلدون ، بيروت ،دار العودة ،١٩٨٨،ص٣٥ :٢٧.
٥١)عصر الدول والإمارات(الجزيرة -العراق -إيران)،ص٦٨.
٥٢)نفسه ،ص٥٢.
٥٣)نفسه ،ص٥٢.